

الفائِبُ

جميع الحقوق محفوظة
لدار الآداب - بيروت

الطبعة الاولى - القاهرة

الطبعة الرابعة

١٩٨٧

نوال السعداوى

الغائبُ

منشورات دار الآداب - بيروت

الفصل الأول

فتحت عينيها في ذلك الصباح وهي تشعر بانقباض غريب ،
يزحف في عروقها كمنمل له دبيب ، ثم يتجاذب ويتجمع في قلبها ،
ويلتصق بعضه ببعض متكوراً كجلطة دم ، تحتك بجدار قلبها حين
يصعد صدرها أو يهبط كلما لاح لها أن تعطس أو تسعل أو تتنفس بعمق .

وفركت عينيها وهي لا تفهم سبب هذا الانقباض ،
فالشمس ساطعة ككل يوم ينفذ ضوءها اللامع من خلال زجاج
النافذة ، ويسقط على مرآة الدولاب ، فتعكس نورا كالوهج
الأحمر فوق الجدار الأبيض وأوراق شجرة الكافور تلمع في الضوء
ككل يوم وترتعش كقراميط صغيرة من السمك ، والدولاب
والشماعة والرف وكل شيء في مكانه في الحجرة .

ورفعت الغطاء عن جسمها ونهضت فوق قدميها الحافيتين ،
وسارت الى المرآة بغير إرادة ، لماذا تنظر في وجهها بمجرد ان
تصحو من النوم ؟ أنها لا تعرف تماما ما السبب ، ولكنها
تحس بأنها تريد أن تطمئن الى أن شيئاً غريباً لم يحدث لها أثناء
النوم . . . ان رقعة بيضاء مثلاً لم تزحف من بياض عينيها لتلتصق
بالننى الاسود ، أو أن ورماً لم ينم فوق طرف أنفها المدبب .

ونظرت في المرآة ، ورأت وجهها الذي تراه كل يوم ، البشرة
السمراء بلون اللبن الممزوج بالكاكاو ، والجبهة العريضة تنهدل

فوقها خصلة شعر غزيرة سوداء ، وعينان خضراوان في داخل كل منهما نواة صغيرة سوداء ، وأنف طويل حاد ، وفم .
وسحبت عينيها بسرعة من فوق فمها ، فهي تكرهه ، انه هو الذى يفسد شكل وجهها ، تلك الفرجة اللاارادية القبيحة ، كأنما كان يجب أن تنمو شفتاها أكثر مما نمت ، أو أن تنمو عظام فكها أقل مما نمت ، وسواء أكان هذا أم ذاك ، فان شفتيها لا تنطبقان بسهولة ، وتظل هناك فرجة دائمة ، تظل من تحتها أسنان بيضاء بارزة .

وشدّت شفتيها وأغلقت فمها ، وراحت تنظر في عينيها ، انها تنظر في عينيها دائما حين تتفادى النظر الى فمها ، فعيناها فيهما شيء ، شيء ما يميزهما عن النساء كما يقول لها فريد .
ورنّت كلمة فريد في رأسها ، وانقضت عن عينيها غشاوة النوم واستيقظت تماما ، وتذكرت بوضوح شديد ، ويقين لا يقبل الشك ، ما حدث ليلة أمس ، وعرفت سبب ذلك الانقباض الذى جثم فوق صدرها ، فان فريد لم يأت في الموعد الذى اتفقا عليه ليلة أمس .

واستدارت لتترك المرأة ، ولتخرج من باب حجرتها الى الحمام ، لكنها لمحت التليفون فوق الرف بجوار السرير ، ووقفت لحظة ، ثم سارت الى طرف السرير وجلست تصوّب الى التليفون نظرة طويلة ، ومدت أصبعها لتضعه في الثقب ولتدير القرص الخمس الدورات ، لكنها سحبت يدها ووضعتها بجانبها فوق السرير ، كيف تطلبه بعد أن أخلف الموعد بغير اعتذار ؟ أليس من الممكن أنه أخلف الموعد عن عمد ؟ وأنه لا يريد أن يراها ؟ ، وان حبه انتهى ؟ انتهى ، كما ينتهى أى شيء ، بسبب ، أو بغير سبب ، وما فائدة أن تعرف السبب مادام قد انتهى ، وهل يمكن أن تعرف السبب ؟ انها لم تعرف لماذا بدأ ، كان يقول انه يرى فى عينيها شيئا ما وشيئا لا يراه فى عيون الآخرين ، شيئا يميزها عن النساء .

ونهدت من جوار التليفون وسارت الى المراة ونظرت في عينيها. كانت تمعن النظر وتبحث عن ذلك الشيء الما ، ورات الدائرتين البيضاوين الواسعتين تعوم داخلهما الدائرتان الخضروان تتوسط كلا منهما تلك الحبة السوداء الصغيرة ، عينان .. كأي عينين ، كعيني الحروف ، أو البقرة ، أو الأرنب المذبوح . أين هو ذلك الشيء الذي رآه فريد ، والذي رآته هي بعينها ، رآته أكثر من مرة يطل من داخل هاتين الدائرتين الخضراوين ، كان يطل منهما ، بارزا متحركا ككائن حي ، أكان يتحرك ؟ .. كيف كان يتحرك ؟ .. انها لا تذكر كيف كان يتحرك ، ولا تذكر أنه كان يطل من الدائرتين الخضراوين ، ربما كان يطل من مكان آخر ، من أنفها .. من فمها .. ! آه .. لا .. ليس فمها ، ليس من تلك الفرجة القبيحة ...

لم يكن هناك شيء ما ، انها لم تره ، لم تره يطل من شيء ، فريد كان يكذب ، ولماذا كان يكذب ؟ .. كان يكذب كما يكذب أى أحد ، ما الغريب فى أن يكذب أى أحد ؟ ... ولكن فريد لم يكن أى أحد .. كان مختلفا ، كان مختلفا عن الآخرين ، وكيف كان مختلفا ؟ .. انها لا تعرف تماما ولكن كان هناك شيء ما فى عينيه يجعلها تحس أنه مختلف ، نعم كان هناك شيء ما فى عينيه لا تراه فى عيون الرجال ، شيء ما يلمع ويطل من عينيه البتيتين ، بارزا متحركا ككائن حي . وماذا كان هذا الشيء ؟ ، انها لا تتذكر ، انها لا تعرف تماما ماذا كان، ولكنها رآته، نعم رآته بعيني رأسها هاتين . وصوبت أصبعها الى عينها فاصطدم بزجاج المراة ، وتنبهت ، ونظرت الى الساعة ، كانت الثامنة ، وتركت المراة بسرعة ، فقد حان موعد ذهابها الى الوزارة .

توقفت مرة أخرى أمام الدولاب ، فقد دخلت كلمة الوزارة مع الهواء الى أنفها كحصوة مدببة ، وحاولت أن تعطس لتطردها

لكن الهواء دفعها بقوة الى صدرها ، واستقرت في قاع صدرها ،
في ذلك الخندق المثلث تحت ضلوعها ، أو بعبارة أدق عند تلك
الفوهة التي تفتح على معدتها .

كانت تعرف أنها ستستقر في هذا المكان ، انها ترتع في تلك
المساحة الخصبة ، تأكل وتشرب وتنتفخ ، نعم كانت تنتفخ كل
يوم ، وتضغط بجسمها الصلب على معدتها ، التي كثيرا ما حاولت
ان تلفظها ، فتقبض عضلاتها وتنبسط ، وقد تفرغ كل ما في
جوفها ، لكن الكتلة الصلبة المدببة تبقى ، تحك بجدار معدتها
كدبوس ، ملتصقة به ، قابضة عليه بأسنانها كدودة شريطية . .
وسارت الى الحمام وهي تحس بالألم المزمع تحت ضلوعها،
تصاحبه رغبة في القيء لا تتحقق ، وأسندت رأسها الى حائط
الحمام ، انها مريضة ، مرضها حقيقي ، وليس ادعاء ، ولا يمكن
لها ان تذهب الى الوزارة .

ودب بعض النشاط في جسمها الناحل ، وسارت بخطوات
سريعة الى السرير ، ثم قفزت فوقه ، ودخلت تحت اللحاف ،
وكان يمكن ان تغمض عينيها وتنام لكنها تذكرت أنها يجب أن تطلب
مدير القسم في التليفون وتعتذر له عن غيابها بسبب المرض .
وسحبت التليفون من فوق الرف ، ووضعتة فوق ركبتيها،
ورفعت السماعة ، ولكنها أعادتها بسرعة الى مكانها ، فقد تذكرت
انها استنفدت إجازاتها المرضية جميعا ، ولا يمكن لأي مرض أن
يشفع لها ، بل لا يمكن للموت أيضا أن يمنحها إجازة ، فقد أدعت
الموت لكل أفراد أسرتها واحدا وراء الآخر ، ولم يبق على قيد
الحياة الا هي ، وهي لا تزال في الثلاثين ، ولا يمكن لمدير القسم
أن يصدّق خبر موتها بسهولة .

ونفضت مرة أخرى تجرّ جسمها الثقيل ، وتضغط بأصبعها
فوق معدتها ، ومرّت بالمرآة متفادية النظر اليها ، وارتدت ملابسها،

واتجهت الى الباب ، وبينما هي تفتح الباب سمعت صوت ا
الواهن ينبعث من المطبخ قائلة :
- ألن تشربي الشاي ؟ ..
- ليس عندي وقت .

وأغلقت الباب خلفها وخرجت الى الشارع .
كان الشارع مزدحما ، لكنها لم تكن ترى شيئا ، آ
عيناها لا تنظران الى الخارج ، وكان من الممكن أن تصطدم بشئ
أو جدار ، لكن قدميها كانتا تسيران وحدهما ، بدراية عظيمه
تصعدان فوق الرصيف وتهبطان من فوق الرصيف تتفاد
حفرة ، وتلفان حول كوم من الطوب ، فكان في قدميها عينيْن أخري
وتوقفت قدساها عند محطة الأتوبيس . كان الزح
شديدا ، وكانت الأجساد ترتطم بها ، وداس شخص على قد
وكاد يفرمها لكنها لم تحس الا ضغطا ما فوق حداثها
تعرف أنها داخل الأتوبيس الا بتلك الاهتزازة التي تص
جسدها ، وتلك الرائحة الغريبة ، التي لا تعرف تماما ما ه
فهي رائحة لا يالفها الأنف ، ولا يعرف كيف يردّها الى مصدره
فليس لها مصدر واحد ، ليس هو الزوايا المنفرجة تحت الابط
وليس هو السكهوف المظلمة اللاهثة وليس هو القشرة المش
الخشنة يلتصق بها الشعر اللزج .

وتنبهت الى شيء ما مدبب يضغط على كتفها ، وكا
قد احست به ولم تعره اهتماما ، ان ضغوطا كثيرة ، تضغط من
ناحية على أعضائها جميعا ، فلماذا تخص كتفها بهذا الاهتمام
ولكنها سمعت صوتا خشنا حادا يدخل أذنها كمسار : التذكرة
.. وانتشر فوق وجهها رذاذ صغير كبشائر المطر . وفتحت حقيبت
بأصابع مرتجفة ، فالرجل ينظر اليها نظرة غريبة ، كنظرة شره
الى لص محترف ، وهو يزمجر بكلمات لم تسمعها كلها ، لكن
التقطت منها كلمتي ذمة وضمير .

وأحست أن وجهها يسخن ، ليس لأنها سمعت هاتين الكلمتين ، فهما وحدهما هكذا بغير حواشٍ وحروفٍ أخرى لا يعينان لها شيئاً ، لكنها رأت العيون كلها من حولها تتجه نحوها ، وفي كل عين منها نظرة غريبة ، كأنهم يحسون من أعماقهم أنهم متهمون مثلها ويحاولون نفي التهمة عن أنفسهم ، ولكنهم يعلمون أنهم نجوا من العقاب ولم يبق لهم إلا تلك الشماتة الخفية فيمن يقع منهم .

ولكنها كانت متهمة على أي حال ، ومادامت قد أصبحت متهمة ، فقد ضاعت حقوقها في الاحترام ، واستباححت عيون الرجال أعضاء جسمها كما يستبيحون أعضاء المومسات ، وأحست بشيء يدفعها ، وتقلصت عضلاتها داخل المعطف الواسع ، ودفست رأسها في الياقة العريضة ، ولم تثبت قدميها في الأرض لتترك جسمها في مهب التيار المتجه نحو الباب . وانقضت لحظة لم تعرف مداها من الانضغاط العنيف كورقة شجرة أو فراشة توضع بين الكتب من أجل التحنيط ، ثم أحست بالضغط يزول فجأة ، وإذا بجسمها يطير في الهواء كريشة حمامة ثم يرتطم بالأرض كقالب الطوب .

بهضت تنفض التراب عن معطفها ، وشعرت بسعادة خفية حين تلفتت حولها فرأت مكاناً لم تره من قبل ، فقد خيل إليها أنها انتقلت إلى العالم الآخر في تلك اللحظة التي طار فيها جسمها في الهواء ، لكن سعادتها لم تدم طويلاً ، فقد وجدت نفسها بعد خطوات قليلة أمام السور الحديدي الصديء ، وضغطت الدودة المزمنة بأسنانها على جدار معدتها ، وباعدت ما بين فكّيها لتفرغ ما في جوفها ، لكن هواء جافاً لاسعاً اندفع من بين شفطيها ، ودمعة صغيرة تجمدت عند زاوية عينها اليمنى وأخذت تعجك فيها كذرة رمل . رفعت رأسها إلى فوق ، ورأت من خلال القضبان الحديدية ذلك المبنى الأسود ، تتخلله بقع صغيرة صفراء تفضح لونه الأصلي ،

وعرفت بما يشبه اليقين ان هناك علاقة ما بين هذا المبنى وبين
رغبة القىء المزمنة التى تشكو منها ، فهى تبدأ حين تذكره ،
وتشتد شيئاً فشيئاً باقترابها منه ، ثم تبلغ درجتها القصوى حين
تبلغه ، وتراه عينا لعين .

وقفت امام الباب الحديدى لحظة تتلفت حولها ، لم تكن
تتعجل الدخول ، فلتؤخر دخولها لحظة ، من يدري ؟ لعل فى
هذه اللحظة بالذات تسقط قنبلة من الجو فوقه ، أو يرمى أحدهم
عقب سيجارة مشتعلة فى مخزن الملفات ، أو تتوقف المضخة
البالية فى صدر مدير القسم فيصاب بسكتة قلبية .

وانقضت اللحظة دون أن يحدث شيء ، فوضعت قدمها
على عتبة الباب لتدخل وأبقت قدمها الاخرى على أرض الشارع،
من يدري ماذا يمكن أن يحدث، بين لحظة وأخرى ؟ أشياء كثيرة
تحدث فى الحياة بين لحظة وأخرى ، آلاف يموتون وآلاف يولدون
براكين، تنفجر وتبتلع البيوت ، زلازل أرضية تحدث وتلك المدن،
أشياء كثيرة تحدث فى الحياة بين لحظة وأخرى ، أكثر مما يتخيله
الناس ، فالناس لا تتخيل الا ما تعرفه ، وتفهم معناه ، وهل
تعرف الناس ما معنى أن ينطلق صاروخ بين لحظة وأخرى ؟ ..
ليس صاروخا عاديا ولكنه صاروخ له رأس نووية ، هل يمكن
أن يتخيل الناس ماذا يمكن أن تكون الرأس النووية .. ؟ وماذا
يمكن أن يدك لو سقط من الجو ؟ .. هل يعرف الناس أن
السماء تزدهم بملايين من الكواكب تفوق الارض حجما ؟ ..
الا يجوز ان يسقط كوكب من هذه الكواكب المعلقة فى الهواء فوق
الارض فيدكها دكا ؟ .. أيمكن أن ينجو هذا المبنى القدر
الاسود وحده من دون القارات الخمس ؟ .. أيمكن أن يظل مدير
القسم معلقا فوق كرسي مكتبه فى الفضاء الخاوي يبل اصبغه فى
فمه ، ويقلب بامعان فى دفتر الحضور والانصراف ؟ .. هذا
لا يمكن ان يحدث ، واذا حدث فلن يقبله أى عقل ، وابتسمت

وهي تقول لنفسها نعم لن يقبله أى عقل .. لكن الابتسامة تجمدت فوق شفيتها ، فقد وجدت نفسها بلحمها ودمها وبكامل وعيها واراقتها في فناء الوزارة .

وقفت بقامتها الطويلة النحيلة تتلفت حولها في دعر ، كأنما وطئت قدمها بطريق الصدفة أرضا ملغمة ، وبينما هي تقف على هذه الحال خيل اليها ان حركة ما غريبة ومفاجئة حدثت في الفناء ، ورأت العربية الطويلة السوداء ذات البطن الاحمر تتهادى فوق أرض الفناء وكأن من تحتها ماء ، ثم تنزلق كحوت ضخمة لتقف أمام سلم رخامى أبيض ، وليقف معها ، وعلى كل جانب من جنبيها صف من تماثيل خشبية ، يرتدى كل منها بدلة صفراء . من اين جاءت هذه التماثيل في هذه اللحظة الخاطفة ؟ .. انها لا تدري ... ربما كانت موجودة دائما هكذا دون ان تلحظها ، أشياء كثيرة لا تلحظها رغم انها موجودة ، أهي لحظت مثلا ان هناك سلما رخاميا له هذا اللون الابيض الناصع ؟ .

واتسعت عيناها بالدهشة حين رأت واحدا من التماثيل يترك الصف ويتقدم نحو العربية بخطوات ، وهي ليست خطوات بمعنى الخطوات ، ولكنها اهتزازات وتشنجات كتلك الحركات التى تصدر عن العرائس المتحركة ، وثنى نصفه الاعلى فوق نصفه الأسفل ، ومد ذراعا طويلا متصلبة ، وفتح باب العربة .. دعت عينيها في تلك اللحظة لتطرد ذرة الرمل الفائرة في زاوية عيناها اليمنى ، لكن ذرة الرمل بدلا من ان تطرد الى الخارج ، ضغطت الى الداخل ، وحملت بعينيها المحمرتين لترى ماذا يمكن أن يخرج من باب العربة ، ورأت أول ما رأت بوز حذاء رجالي اسود مدبب ، تبعته ساق رفيعة قصيرة لينطلون رصاصي له ثنية عريضة منشأة ثم خرج رأس كبير مخروطى أبيض تتوسطه رقعة صلعاء صغيرة عكست فوقها ضوء الشمس كمرآة ، ثم كتف رصاصي مربع ، ثم الساق الثانية القصيرة الرفيعة ..

وتذكرت وهي تشهد خروج ذلك الجسم الآدمي عضوا
عضوا، حالة ولادة شهدتها صدفة في البلد وهي طفلة ، وكانت العربية
لا تزال واقفة يرتفع ظهرها المقوس الاسود فوق مدخل السلم .

واته يصعد السلم درجة درجة ، وفوق كل درجة يتوقف
لحظة ، كأنما ليلتقط أنفاسه ، فيثنى رقبته الى الوراء ، ويهتز
رأسه الكبير الى الخلف كأنه سيسقط من خلف ظهره ، لكنه
لا يسقط ، ويظل مشبوكا في الرقبة .

كان يخيل اليها أحيانا انها تنظر اليه من خلال عدسة
مصغرة ، وكانت تظنه أحيانا عقلة الاصبع الذي كان بطل حكايات
جدتها ، وأحيانا أخرى حين تكون شاردة كما كانت في تلك اللحظة
تفتنه حقيقته فرصة شرودها لتفرض عليها نفسها كوكيل لوزارة
الكيمياء الحيوية التي تعمل فيها موظفة .

وابتلعه الدهليز الواسع ، واختفت العربية ، وفقدت التماثيل
قوامها الصلب ، وارتخت عضلاتهم وتهدلت ، وساروا بسيقان
معوجة الى الدكة الخشبية الملاصقة للسلم فجلسوا عليها ، وراحوا
ينظرون اليها وهي تمر من جوارهم بعيون نصف مغمضة ، وافواه
نصف مفتوحة ، وقد يدس أحدهم في فمه لقمة خبز بالجبن
القريش ، أو يخرج صحن الفول المدمس من تحت الدكة .

واجتازت الفناء الواسع ، ودارت حول المبنى الاسود حتى
بلغت ظهره ، وظهر المبنى كظهر أى شيء ، أكثر سوادا ، أكثر
خشونة وغلظة ، ووقفت لحظة أمام الباب الخشبي الصغير ذى
الضلفة الواحدة ، ترسم فوقه بسواد كالهباب أشكال مختلفة ،
منها أصابع آدمية ، ومنها دوائر كالكف ، وحروف كلمات مبتورة ،
ورأت كلمة انتخبوا وقد طمس السواد حروفها الثلاثة الاخيرة .
سارت في الدهليز الضيق المظلم ، وصعدت السلم ، وقفزت
قدمها المدربتان فوق الدرجة المفقودة ، وتفادتا قضيب الحديد

البارز من «الدرايزين» ، ووصلتا الى الدور الرابع وانحرفتا الى اليمين لتعبرا ممرا طويلا ، وفاحت رائحة البول النتنة ، وأشاحت بأنفهما بعيدا عن باب دورة المياه ، ثم دخلت من الباب الثانى المجاور لها ، فأصبحت فى مكتبها .

سارت الى مكتبها وجلست ، وأخرجت من الدرج فوطة صفراء ومسحت التراب من فوق المكتب فبدت قشرته السوداء وقد انتزعت فى بعض اجزائها وظهر من تحتها لحم المكتب الابيض . وأعدت الفوطة الى مكانها فى الدرج ثم رفعت رأسها ، ورات المكاتب الثلاثة الاخرى ملتصقة بعضها ببعض فى صف واحد طويل ، ومن فوقها تبرز الرعوس الثلاثة المحنطة . .

كانت الرائحة النتنة لا تزال فى انفها ، وقد أضيفت اليها رائحة أخرى غريبة كتلك الرائحة التى تبيت فى حجر النوم المغلقة المحكمة الافلاق ، ونهضت لتفتح النافذة لكن صوتا غليظا أشبه ما يكون بزمجرة حيوان مريض قال : الدنيا برد ! لا تفتحي .

عادت لتجلس الى المكتب ، وأخرجت من الدرج ملفا كبيرا ، وتاملت الغلاف السميك الخارجى ، ومن فوقه رقعة صغيرة بيضاء كتب عليها : الابحاث الكيماوية الحيوية . انه خط يدها، والحروف مكتوبة بعناية واناقة ، كل حرف ضغط عليه بالقلم الحبر ، انها تذكر كيف ضغطت بالقلم على كل حرف ، كان القلم جديدا ، ودواة الحبر جديدة ، لا تزال تذكر رائحة الحبر ، كان ذلك منذ ست سنوات لكنها تذكر الرائحة ، وتذكر شكل أصابعها وهى تضغط على الحروف ، كانت قد وقعت قرار استلامها العمل الجديد فى قسم الابحاث الكيماوية الحيوية ، وارتجفت أصابعها وهى تكتب أسمها تحت القرار الرسمى ، أول مرة توقع قرارا رسميا ، أول مرة يكون لتوقيعها قيمة رسمية .

وفتحت الغلاف ، وظهر لها بطن الملف الاصفر ، وقد شبك

فيه من الوسط قضيب رفيع من الصفيح ، تتدلى منه ورقة بيضاء ، ليس عليها خط واحد .

أغلقت الملف وأعادته الى الدرج ثم رفعت رأسها الى السماء ، لكن عينيها اصطدمتا بالسقف ، فنهضت وسارت لتقف بالقرب من النافذة ، ولتنظر من خلال الزجاج المتسخ الى السماء .

شيء ما فى السماء يجعلها تستريح . . . ربما الاتساع ، ربما اللون الازرق القوي الثابت تحت ذلك البياض الزاحف ، او ربما لان السماء تذكرها بفريد .

وهي لا تعرف ما العلاقة بين السماء وفريد ، ولكنها تعرف ان هناك علاقة ما بينهما ، ربما لانها تكون موجودة دائما حين يكون فريد موجودا ، او لانها تكون موجودة ايضا حين يغيب . وفريد لم يأت ليلة أمس الى الموعد ، أول مرة يخلف الموعد ، ولم يتكلم فى التليفون ولم يعتذر . ما الذى حدث . . ؟

وبدت السماء ثابتة صامته كأنها متواطئة معه ، وواصلت السحب البيضاء زحفها وكان شيئاً لا يعنيهها ، وبرزت رءوس الاشجار من فوق المباني البعيدة سوداء متعرجة كالأورام . فريد غاب لسبب ، كل شيء يحدث فى الحياة لسبب ، الاشياء التى ظنت يوماً أنها حدثت بغير سبب اتضح سببها بعد حين ، ولكن ما السبب . . قد تكون هناك حادثة أو مرض أو موت عزيز ، وقد يكون شيئاً آخر . ونقرت بأصابعها فوق زجاج النافذة ، نعم ، قد يكون شيئاً آخر أراد فريد أن يخفيه . كان يخفى أشياء ، كان يخفى أوراقاً فى أدراج مكتبه ، وكان يفلق الباب أحياناً حين يتكلم فى التليفون .

كانت هذه أشياء عادية لا تلفت نظرها ، كل واحد له أسرار يجب أن يخفيها ، خطابات غرامية قديمة ، كمبيالات لم تسدد ، عقود ايجار ثلاثة قراريط فى البلد ، صورة أمه بالجلباب والقبقاب

صور طفولته بطربوش زرّه ضائع . نعم هناك دائما أشياء يجب الواحد أن يخفيها في درج ، انه لا يستغني عنها من حين الى حين ، وليس هناك ضرر في أن يضعها في درج مغلق في أسفل المكتب . ولكن احاديث التليفون الطويلة من وراء الباب المغلق . . ما تفسرها ؟

وضغطت بكعب حذاءها فوق الأرض فدخل في ثقب حفرة فار أو صرصار في الخشب ، وشدت قدمها لتخرج كعبها من الثقب فانخلع حذاءها . واثنت فوق الأرض وأخرجت الكعب وهي تنظر حولها . كانت الرعوس الثلاثة المحنطة لا تزال في وضعها الا من تغيير طفيف . ونظرت في الساعة ، كانت العاشرة والنصف ، امامها ثلاث ساعات ونصف لتخرج من هذا القبر ، وجلست الى المكتب لحظة ، ثم نظرت الى الساعة ، كان العقربان الرفيعان قد تجمدا فوق الساعة العاشرة . ودست حقيبتها تحت ابطها ، ونهضت ثم خرجت مسرعة .

وقفت لحظة في نهاية الممر قبل أن تهبط السلم ، وفكرت أن تصعد الى الدور الخامس وتعتذر لمدير القسم عن خروجها المبكر ، ووضعت قدمها فوق السلم ، لكنها بدلا من أن تصعد هبطت بسرعة وهي ترفع كتفها ، وتخفض رأسها الى ما تحت ياقة المعطف العريضة .

ابتعدت بسرعة عن السور الحديدى ، فأصبحت في الشارع الواسع المزدهم ، وتركت كتفها ورأسها تعود الى وضعها الطبيعي ، وسقطت أشعة الشمس فوق ظهرها فأحست بشيء قليل من اللذة ، كان يمكن أن يكون أكثر من ذلك لولا تلك الهموم التي تثقل قلبها ، ورات المرأة الجالسة فوق الرصيف ، ويدها الفارغة ممدودة للناس ، وفي حجرها الطفل الصغير ، وأشعة

الشمس تفرق جسمها كله ، وهي جالسة هادئة ساكنة ، لا تجرى هاربة من الوزارة ، ولا يثقل قلبها كل تلك الهموم .

وتركت قدميها تسيران ببطء ، لكن حركة الشارع السريعة انتقلت اليها كأنما بالعدوى ، فوجدت قدميها تسرعان الخطى كأنها ذاهبة لتلحق بموعد هام ، ولم يكن هناك موعد هام أو غير هام ، لم يكن هناك أى شيء ، ولم تكن تعرف الى أين هي تسرع .

والتقطت عينها من وسط الناس المرعبين ، فتاة طويلة نحيلة ، خيل اليها أنها تشبهها ، فقد كانت تمشي بسرعة ، وتقذف بنصفها الأعلى الى الأمام وكأنها على وشك ان تجري ولكن الخجل يمنعها ، وفي يدها حقيبة تهتز ، حقيبة جلدية سوداء كتلك الحقيب التي يحملها الأطباء أو المحامون أو كبار الموظفين ، كانت الحقيبة منتفخة ، ولا بد ان بداخلها أوراقا كثيرة وهامة ، وأشارت الفتاة الى تاكسى ثم قفزت فيه بنشاط ومرح واختفت . انها تعرف الى أين هي ذاهبة ، وقدماها تقفزان فى نشاط ومرح ، لا شك أنها مشغولة جدا ، ومنهمكة جدا ومستغرقة جدا ، انها تؤدي عملا هاما ، وهي سعيدة بهذا العمل ، راضية عن نفسها ، تحس أنها شيء هام ، نعم انها شيء هام .

وأطبقت شفثيها وزممتها لتزدرد ريقها ، انها شيء هام ، وليست مثلها متعطلة تتسكع فى الشارع بغير هدف . وأحسنت أنها تحسدها ، نعم ان الحسد هي الكلمة التي يمكن أن تصف شعورها فى تلك اللحظة ، وهي لا تعرف معنى كلمة الحسد ، ورثتها كما ورثت أنفها وذراعيها وعينيها ، وهي تعرف ان الحسد عمل خارجي ، أى أنها لا يمكن أن تحسد نفسها ، ولا بد من وجود شخص آخر لتحسده ، ولا بد لهذا الشخص من صفات يستحق بها الحسد ، كأن يكون شيئا هاما ، ليس شيئا هاما مجردا ، ولكنه شيء هام بالنسبة لنفسها .

ووضعت يدها في جيب المعطف وراحت تلعب بأصابعها في
ثقبوب البطانية الحريرية كأنها تبحث عن شيء ما هام داخل
نفسها ، واكتشفت فجأة ان ليس لنفسها شيء هام ، لم يكن
اكتشافا ، ولم يكن فجأة ، ولكنه شعور مبهم متدرج بطيء بدأ منذ
مدة لا تعرف مداها ، ربما بعد ان تخرجت في كلية العلوم ، ربما
بعد أن اشتغلت في الوزارة ، ربما أمس فقط حين ذهبت الى
المطعم ووجدت المائدة خالية ، أو ربما في هذا الصباح حين اندس
بين رذفيها ذلك الشيء المدبب وهي تقفز من الأتوبيس .

وابتلعت لعابا مرا وحركت لسانها الجاف وهي تقول لنفسها
بصوت يكاد يكون مسموعا : نعم ، أنا لست شيئا .

كان يمكن أن تردد مرة أخرى وتقول أنا لست شيئا ، لكن
عضلات شفتيها تقلصت ، فماتت الحروف في بطن فمها حيث
زادت المرارة وأصبحت تلسع كالحامض .

ورفعت رأسها الى فوق ، وراحت عيناها تفتشان في السماء
كأنما تبحث عن شيء ، نعم كانت تبحث عن شيء ، فقد تذكرت
صوت أمها وهي تقول :

« ربنا يفتح عليك يا فؤادة يا بنتي وتخترعين اختراعا عظيما في
الكيمياء » .

ورأت الزرقة لها مسام مسدودة ، والسحب البيضاء
تزحف فوقها بحركتها نفسها اللامبالية ، وأطرقت رأسها الى
الأرض وهمست لنفسها بصوت لم يسمعه أحد : ظنوك خابت
يا أمي وارتطمت دعواتك بسماء مصمتة .

ومصمت شفتيها : اختراع عظيم في الكيمياء ! .. ماذا
كانت تعرف أمها عن الكيمياء ؟ .. ماذا كانت تعرف عن الاختراع ؟ ..
كانت فؤادة ابنتها الوحيدة ، وكانت ترضى طموحها الناقص
فيها ، وعلى عكس الأمهات في تلك الأيام لم تكن تفكر في زواجها ،

فلم يكن طموحها من ذلك النوع النسوى العادى ، كانت قبل أن تتزوج قد ذهبت الى المدرسة ، وربما قرأت بعض القصص ، ربما قرأت رواية عن فتاة تعلمت وأصبحت شيئا عظيما ، ربما هى قصة مدام كورى أو واحدة أخرى من النساء الخالدات ، لكنها فتحت عينيها ذات صباح فلم تجد مريلة المدرسة كما تركتها فى الليلة السابقة فوق الشماعة ، وسمعت صوت أبيها الخشن يقول : لن تذهبي الى المدرسة . وجرت الى أمها تبكى وتسال عن السبب . ولم يكن السبب سوى الزوج ، وكان هذا كافيا لأن تكرهه من أول نظرة ، وظلت تكرهه حتى مات ، وبعد ان مات وكانت فؤادة لا تزال فى المدرسة الثانوية قالت لها أمها وهى تسوى شعرها الأسود الناعم أمام المرأة وتتأمل قوامها المشقوق : مستقبلك فى المذاكرة يابنتى ، الرجل ليس له فائدة . كانت أمنية أمها أن تدخل فؤادة كلية الطب ، ولكنها لم تحصل على مجموع عال فى نهاية المرحلة الثانوية . ربما لأنها لم تستذكر كثيرا ، أو ربما كانت تجلس فى حصة للتاريخ بجوار النافذة ، وتشرد عيناها بعيدا ، الى تلك الشجرة الكبيرة تنتشر فوقها زهور حمراء كثيرة متلاصقة فكانها عمامة نثر فوقها مسحوق النحاس الأحمر ، واكتشفت وهى جالسة فى حصة التاريخ انها تحب لون مسحوق النحاس الأحمر ، وانها تحب حصة الكيمياء ، وانها تكره التاريخ ، لم تكن ذاكرتها تعي أسماء الملوك والحكام الذين حكموا مصر قبل ان يموتوا ، لم تكن تفهم لماذا يضيع الأحياء وقتهم فى اجترار ما فعله الأموات ، لقد مات أبوها ، ولعلها فرحت قليلا حين مات . لم تكن فرحتها بسبب شيء معين ، فلم يكن أبوها شيئا معيناً فى حياتها ، كان مجرد أب ، ولكنها فرحت لأنها احسست ان أمها فرحت ، وسمعتها بعد أيام تقول لم يكن له فائدة كبيرة ، واقتنعت بكلامها كل الاقتناع ، فماذا كانت فائدة أبيها ... ؟

لم تكن ترى أبها إلا يوم الجمعة ، فقد كان يجيء الى البيت بعد أن تنام ويخرج قبل أن تصحو ، وكان البيت هادئا نظيفا في كل الأيام ماعدا يوم الجمعة ، كان أبوها يبذل الحمام حين يستحم ، ويخرج من الحمام ليبلل الصالة ، ويقذف بملابسه المتسخة في كل مكان ، ويرفع صوته الخشن بين لحظة وأخرى ، ويسعل كثيرا ويبصق كثيرا ويتمخط بصوت عال حاد ، وكانت مناديله كثيرة جدا وقذرة دائما ، تضعها أمها في الماء المغلي وتقول لها : لأطهرها من الجراثيم ، ولم تعرف فؤادة يومها ما معنى الجراثيم ، لكنها سمعت مدرّسة الصحة والأشياء تقول في إحدى الحصص أن الجراثيم أشياء صغيرة ضارة بالانسان ، وسألت مدرّسة الفصل في ذلك اليوم : أين توجد الجراثيم يا بنات ؟ لكن الفصل ظل ساكنا ، ولم ترفع واحدة من البنات أصبعها ، وأحست فؤادة أنها تعرف الجواب فرفعت أصبعها الى أعلى في ثقة وكبرياء ، وابتسمت المدرّسة لتشجيعها وقالت في رقة : هل تعرفين أين توجد الجراثيم يا فؤادة ؟ ونهضت فؤادة واقفة رافعة رأسها فوق البنات وقالت بصوت عال مليء بالثقة : نعم يا أبله ، الجراثيم توجد في مناديل أبي .

وجدت فؤادة نفسها في البيت ، في حجرة نومها ، جالسة على طرف السرير تحمق في التليفون الراقد فوق الرف . لم تعرف كيف حملتها قدماها كل تلك المسافة الطويلة وكيف صعدتا في الأتوبيس ، وكيف هبطتا منه في المحطة الصحيحة ، وكيف سارتا من المحطة الى البيت ، كيف فعلتا ذلك كله وحدهما دون أن تدري هي ، ولم تفكر في هذا الأمر التافه طويلا . فهي لا تتصور ان هذه صفة تفرد أو تميز تحظى بها قدماها ، فاقدام الحمار تفعل الشيء نفسه في صمت وهدوء .

ومدت يدها الى التليفون ، ووضعت أصبعها فى القرص وأدارته الخمس الدورات المعهودة ، وجاءها الجرس ، فأسندت ظهرها الى مسند السرير استعدادا لعتاب طويل ، وظل الجرس يرن ، ونظرت الى الساعة ، كانت الثانية عشرة ، فريد لا يخرج من البيت قبل الواحدة أو الثانية ، ربما يكون فى حجرة النوم يقرأ فى السرير ، وبين حجرة النوم وحجرة المكتب حيث التليفون يمر طويل ، ربما يكون فى الحمام والجرس لا يسمع من وراء باب الحمام المغلق ، ورفعت عينها الى النافذة ، ورات فروع شجرة الكافور تتلاعب من وراء الزجاج ، الشجر أيضا له قدرة على التلاعب ، وكانت السماعه لا تزال ملتصقة بأذنها ، والجرس الحاد يرن فيها رنينًا عاليًا وخطرت لها فكرة فوضعت السماعه لحظه ثم رفعتها وعادت تطلب الرقم من جديد وتأكدت أنها تضع أصبعها فى الثقب الصحيح ، وما ان توقف القرص بعد الدوره الخامسة حتى انطلق الجرس فى أذنها كالقذيفة ، وظلت منسكة بالسماعه الى جوار أذنها فترة طويلة ، تكفى لخروج أى شخص من حمام ، أو لا ستيقظه من النوم ، وخطرت لها فكرة أخرى فوضعت السماعه لحظه ثم رفعتها وطلبت الدليل ، وسألت عما اذا كان هناك عطل ما فى التليفون ورد عليها الصوت الناعم المبطوط بعد لحظه يقول :

التليفون سليم ، معك الجرس .

ودوى الجرس فى أذنها مرة أخرى حادا عاليا لا ينقطع ، فوضعت السماعه فى مكانها فوق التليفون واسندت رأسها الى حافة المسند وراحت تحملق فى النافذة .

لم تكن فكرت من قبل فى علاقتها بفريد ، كانت تعيشها فحسب ، لم يكن هناك متسع للثنين معا ، أن تعيشها وان

تفكر فيها ، وكان فريد مشغولا دائما ، يقضى الساعات مع كتيبه وأوراقه ، قد يقرأ ، وقد يكتب أشياء يضعها بعناية في درج المكتب ويفلق الدرج بالفتاح ، وكان يخرج عصر كل يوم ويتأخر ليلا ، وقد يقضي بعض الليالي خارج البيت ، ولم تكن تسأله اين يذهب ، لم تحب أن تقوم بدور الزوجة المستجوبة ، بل لم تحب أن تقوم بدور الزوجة على الاطلاق ، كانت تعشق حريتها ، وتعشق حجرتها الخاصة ، وسريرتها الخاص ، وأسرارها الخاصة ، واخطائها الخاصة ، لم تكن لها أخطاء بمعنى الاخطاء ، ولكنها كانت تحب ان تختفي احيانا فلا يعرف فريد طريقها ، وكانت تطرب لكلمات الاعجاب حين تسمعها من فم رجل ، طربا للذي خاليا من الدهشة ، فقد كانت على يقين من ان فيها شيئا ما يستحق الاعجاب . لكن فريد كان محور حياتها ، كانت تبتلع ايامها كجرعة من زيت الخروع ، ثم يهل يوم الثلاثاء باشراقته العجيبة ، الثلاثاء هو موعدنا مع فريد ، كل ثلاثاء في الثامنة مساء في ذلك المطعم الصغير اذا كان الجو دافئا ، أو في بيته في ليالي الشتاء القارصة . كم شتاء مر على علاقتهما ؟ . انها لا تعرف تماما ، ولكنها تعلم أنها تعرف فريد منذ زمن بعيد ، وربما بعيد جدا .

كم شتاء مر ، وكم ثلاثاء مر ، وفي كل ثلاثاء يأتي فريد ، لم يخلف الموعد مرة واحدة ، ولم يكذب مرة واحدة ، ربما أخفى عنها أشياء ، لكنه لم يكذب ، حتى حينما جاءت سيرة الزواج من حيث لا يدريان قال لها وهو ينظر اليها بعينيه البنيتين اللامعتين : لن أستطيع الزواج فترة من الزمن . لو قالها أي رجل آخر فربما أحست بشك فيه ، أو بطعنة في كرامتها ، لكن فريد كان مختلفا وكان كل شيء معه يصبح مختلفا . حتى الكلمات تفقد معناها التقليدي المعروف ، والأسماء قد تبدو فجأة وكأنها لا تنطبق

على الأشياء التي سميت بها ، أو تبدو فارغة المعنى بغير محتوى .
كلمة كرامة مثلا ، ماذا تعني كلمة كرامة . . ان يحافظ الانسان
على عزة نفسه ؟ . . ضد من ؟ . . ضد الآخرين ؟ . . نعم ،
لا بد ان يكون هناك آخرون ليدافع الشخص عن عزة نفسه .
ضدهم .

ولكن لم يكن بينها وبين فريد شيء اسمه آخرون ، أو شيء
اسمه نفسها ضد نفسه ، كانا يتبادلان كل شيء في الحب حتى
نفسيهما ، فتصبح هي نفسه ويصبح هو نفسها ، ويدافع هو عن
حقوقها ، وتتولى هي الدفاع عن حقوقه . كان شيئا غريبا ذلك
الذي يحدث بينهما ، ولكنه كان يحدث بسهولة ، ومن تلقاء نفسه ،
كهواء يدخل الأنف . لقد كان شيئا طبيعيا جدا .

وسمعت صوت قدمي أمها تزحفان في الصالة ، في اتجاه
حجرتها فنهضت بسرعة وبدأت تتحرك في الغرفة ، انها لا تحب
ان تدخل حجرتها فتراها ساهمة تحملق في الفضاء كالمعتوهين .
ورأت أمها وهي تقف على عتبة الباب بطرحتها البيضاء وجلبابها
الطويل وتقول لها بصوتها الضعيف المبحوح : آراك بملابس
الخروج . هل ستخرجين ؟ . . . وردت عليها بغير تفكير سابق في
الخروج : نعم . وقالت أمها : والغداء ؟ . . . وأمسكت فؤادة
بحقيبة يدها استعدادا للخروج وهي تقول : لا أشعر بجوع .

لم تكن فؤادة تعرف لماذا خرجت ، كانت تريد الا تبقى في
البيت ، كانت تريد أن تتحرك ، وأن ترى حركة من حولها ، وان
تسمع صخبا عاليا ، يعلو على ذلك الجرس الذي يرن في أذنيها
بإصرار واستمرار لا ينقطع . وخرجت من شارع بيتها ، وانحرفت
الى اليمين لتسير بجذاء السور الحجري لمشتل الزهور ، ورات
زهرات الياسمين البيضاء تلمع كقروش من الفضة في ضوء

الشمس الساطع ، وامتدت يدها بحكم العادة وقطفت واحدة ، دعكتها بين أصابعها ، وامتلا أنفها برائحة الياسمين فشعرت بالكتلة الثقيلة تتحرك في قلبها . رائحة الياسمين كان لها معنى لقائها مع فريد ، وكان لها ملمس قبلاته فوق عنقها ، ولكنها الآن تعني غيابه ، وهي برائحتها القوية تركز هذا الغياب فيرسب في أعماقها احساسا واقعيا كثيبا ، وكان كالوهم ، أو كالخلم الذي سينتهى حتما حين تصحو من النوم .

وتركت زهرة الياسمين البالية تسقط من بين أصابعها ، وسارت في الشارع الضيق الصغير ثم خرجت منه الى شارع النيل ، وعرفت فجأة أنها لم تخرج من البيت بغير سبب ، أو لمجرد الحركة ، كان لها هدف محدد تريد ان تبلغه ، وسارت بضع خطوات قليلة فوجدت نفسها أمام باب المطعم الصغير .

ترددت لحظة وهي تدخل ، لكنها دخلت ، واجتازت الممر الطويل وسط الشجر ، وبدأ قلبها يدق ، فقد تصورت أنها ستخرج من هذا الممر لترى (فريد) جالسا الى المائدة ذات المفروش الأبيض ، ظهره ناحيتها ووجهه ناحية النيل ، كتفاه مائلتان الى الأمام قليلا ، وأذناه الصغيرتان محتقنتان بالدم ، وشعره الأسود يهبط في غزارة خلف أذنيه ، وأصابعه الطويلة الرفيعة فوق المائدة تلعب بقصاصة ورق ، أو تقلب في النوتة الصغيرة التي يحتفظ بها دائما ، أو تفعل أى شيء آخر ، ولكنها لا تبقى ساكنة أبدا .

نعم ، ستخرج من الممر فتراه جالسا هكذا ، وسوف تمشي على أطراف أصابعها حتى تقف خلفه ، وتمد ذراعيها حول رأسه وتغطي عينيه بيديها ، وسوف يضحك ويمسك يدها بقوة ، ويقبلها أصبعا أصبعا .

ودق قلبها بعنف حين وصلت الى نهاية الممر ، وانحرفت

الى اليسار خطوة لتخرج منه ، ورفعت رأسها نحو المائدة ، ففاصت جلطة الدم في قلبها ، كانت المائدة خالية ، عارية بغير مفرش أبيض . واقتربت منها وتحسست ظهرها وكأنها ستعثر على شيء نسيه فريد ، على ورقة صغيرة تركها لها ، لكن أصابعها لم تلمس الا ظهر المائدة الخشن المتعرج ، يضربه الهواء من كل ناحية كجدع شجرة عجوز .

ولمحاها الجرسون فجاء اليها يبتسم ، لكنه رأى وجهها فأطرق الى الأرض ، وسارت نحو الممر ، وقبل ان تنحرف لتدخل فيه استدارت ونظرت الى المائدة ، كانت لا تزال خالية فاندفعت داخل الممر ثم خرجت من المطعم بخطوات سريعة .

لم تكن تعرف الى أين هي تسرع ، كانت تعرف أنها تفر من المطعم ، ومن البيت ، ومن شارع النيل ، ومن كل تلك الامكنة التي تذكّرها بفريد . كانت الامكنة متواطئة معه ، تخفي غيابه ، وتؤكد وجوده ، الامكنة أيضا تنافق كما ينافق الموظفون وأسرعت الخطى لتخرج من شارع النيل ، ولتبحث عن مكان محايد لم ير (فريد) ، ولم يعرفه ، ولن يكون متواطئا معه .

ووجدت نفسها في شارع الدقي الفسيح ، ورأت أتوبيسا على وشك التحرك فقفزت فيه دون أن تعرف رقمه ، ووضعت قدمها على السلم ، وظلت القدم الثانية طائرة في الهواء ، وامتدت اليها الايدي تساعدها على الطلوع ، واستطاعت أن تدس قدمها الثانية بين الأقدام الواقفة على السلم ، وأحاطت بها ذراع طويلة قوية لتحميها من السقوط ، ثم وجدت نفسها تدفع مع الاجسام الى داخل الأتوبيس .

واحدة من الملايين ، جسم من الاجسام البشرية التي تزحم الشوارع والمواصلات والمساكن . من هي ؟ . . . فؤادة خليل

سالم ، انشى ، من مواليد الصعيد ، ورقم البطاقة ٣١٢٥٠٩٨
مركز شباط ، ماذا يمكن ان يحدث للعالم لو أنها سقطت تحت
عجلات الأتوبيس ؟ ٠٠٠ لن يحدث شيء ، ستظل الحياة كما هي
تجرى لاهثة غير عابثة ولا مبالية ، ربما تكتب أمها نعيها فى صفحة
الوفيات ، ولكن ماذا يفعل سطر فى جريدة ؟ ماذا يغير فى العالم ٠٠٠ ؟
ودارت عينها حولها فى دهشة ، ولكن لم الدهشة ؟ ..
انها واحدة من ملايين فعلا ، وهى جسم من الأجسام المحشورة
فى الأتوبيس فعلا ، وهى لو سقطت تحت العجلات وماتت فلن
يغير موتها من العالم شيئا ... ما وجه العجب فى هذا ؟ ، لكنها
كانت لا تزال تحس أنه عجيب ، انه شيء يثير دهشتها ، شيء
لا يمكن أن تصدقه أو تقبله .

فهى ليست واحدة من ملايين ، ان فى أعماقها شيئا يؤكد
لها أنها ليست واحدة من ملايين ، انها ليست كتلة بشرية تتحرك ،
انها لا يمكن أن تعيش وتموت فلا يحدث للعالم أى تغيير ، نعم ،
فى أعماقها شيء يؤكد ذلك ، ليس فى أعماقها وحدها ، وانما فى
أعماق أمها أيضا ، وفى أعماق مدرسة الكيمياء وفى أعماق فريد .
وزحف فى رأسها صوت أمها تقول : ستكونين شيئا عظيما
مثل مدام كورى ، وتبعه صوت مدرسة الكيمياء يقول : فؤادة شيء
آخر غير باقى بنات الفصل ، وهمس صوت فريد فى أذنها : فيك
شيء لا يوجد عند الأخريات .

ولكن ما قيمة كل هذه الاصوات المنتهية . لقد دوت مرة أو
مرات وأحدثت ذبذبات فى الهواء ثم انتهت .. أمها قالت لها ذلك
وهى صغيرة منذ زمن بعيد ، ومدرسة الكيمياء قالتها وهى فى المدرسة
الثانوية منذ سنين كثيرة ، وفريد قالها ، نعم فريد قالها ، ولكن
فريد صوته تلاشى فى الفضاء ، وهو نفسه اختفى من الوجود ،
فكانه لم يكن أبدا موجودا .

وداست امرأة سميئة فوق قدمها ، ولكزها الكمسارى فى
كتفها لتدفع التذكرة ، وامتد كف كبير من الخلف وضغط على فخذهما ،
نعم جسم من الاجسام التى تزحم العالم ، وتملا الجو برائحة العرق ،
واحدة من ملايين ، ملايين ، ملايين . وقالت بصوت عال دون أن
تدرى : ملايين ملايين ! . وحملت فيها المرأة السميئة بعينين
واسعتين كعيني البقرة ، ونفخت فى وجهها رائحة البصل فأشاحت
بوجهها الى ناحية النافذة ، ورأت من خلال الزجاج ميدان التحرير
فاندفعت بكل قوتها لتنزل من الاتوبيس .



وقفت فى الميدان الواسع ، تتلفت حولها ، وترفع رأسها الى
فوق لترى العمارات العالية ، وقد امتلأت واجهاتها بالاسماء ذات
الخطوط العريضة ، أطباء ومحامون ومحاسبون وخياطون ومدلكون .
الخ ، والتقطت عينها لافتة كتب عليها : معمل عبد السميع
للتحليلات . وفجأة اتضح فى رأسها شيء . كأنما صوّب نحو رأسها
ضوء كشاف صغير ، ولاحت الفكرة فى رأسها واضحة فى النور
الجديد ، كانت فى رأسها دائما ، كامنة فى الظلام ، لا يصدر عنها
حركة ، لكنها كانت موجودة ، وكانت تعرف انها موجودة .

ولكنها لم تعد موجودة فحسب ، لقد بدأت تتحرك ، وتخرج
من ركنها المظلم الى منطقة الضوء ، واستطاعت فؤادة أن تقرأها ،
نعم لقد كانت مكتوبة بخط عريض واضح فوق واجهة العمارة :
معمل فؤادة للتحليلات الكيمائية .

كانت هذه هى الفكرة المزمنة فى رأسها ، لم تعرف متى بدأت ،
فهى ليست من الذين يحفظون التواريخ ، أو يجيدون حساب الزمن ،
الزمن أحيانا يمضي بسرعة ، بسرعة شديدة ، كسرعة دوران الارض ،
فيبدو لها وكأنه لا يتحرك ، وأحيانا أخرى يمضى ببطء ، ببطء شديد
فيهز الارض هذا كبركان ينتفخ فى باطنها .

انها فكرة بدأت منذ زمن بعيد ، لاحت لها مرة وهي جالسة
فى حصة الكيمياء فى المدرسة الثانوية ، لم تكن واضحة كل هذا
الوضوح ، واتما كانت تتراءى لها من خلال بخار كالضباب، وكانت
عينها تتبعان باهتمام تلك الحركة الغريبة داخل أنبوبة الاختبار،
وتلك الالوان التى تختفى فجأة وتظهر فجأة ، والأبخرة ذات الروائح
الغريبة ، والراسب المتخلف فى القاع ، مادة جديدة هي نتاج تفاعل
كيميائى لمادتين مختلفتين ، لها صفات جديدة ، ولها شكل جديد ،
ولها اشعاع جديد ، وتنتهى حصة الكيمياء ، وتبقى هي فى المعمل،
تمزج المواد بعضها ببعض ، وتراقب بدهشة التفاسلات ، وتشم
الغاز المنبعث من فوهة الانبوبة ثم تصرخ فى فرح : غاز جديد !!
اريكا ،

وكان مساعد المعمل يندفع بجسده الرفيع المدبب كرصاصة
ويصيح بصوت عال حاد كأنفجار موقد الغاز : اطلعى بره !! ويشد
من بين أصابعها أنبوبة الاختبار ويلقي مواد اكتشافها فى البالوعة
وهو يلعن الزمن الذى جعله مساعد معمل فى مدرسة بنات حقيرة ،
وكان المفروض أن يكون معيدا فى كلية العلوم لو انه اكمل دراسته .
ونقد صبرها فى يوم وهو يلقي مواد تجربتها الفريدة فى الحوض
وصرخت : ضيعت اكتشافى !! ورأته وهو يزوم عينيه الضيقتين
فى نظرة ساخرة فأشاحت بوجهها بعيدا عنه وخرجت تجرى من
المعمل ، وظلت نظراته الساخرة تطاردها وتعطلها عن اكتشافها فترة
طويلة ، وكان يمكن أن تصرفها نهائيا، عن فكرة الاكتشاف الملحة ،
لولا ان عقلها كان قد اتجه الى حصة الكيمياء ، والى مدرسة الكيمياء .

كانت مدرسة الكيمياء طويلة نحيلة مثلها، ولها عينان بأسمتان
دائما أبدا ، فيها نظرة عميقة دسمة كلها ثقة . وكان يخيل اليها
ان هذه الثقة كلها متجهة اليها هي وحدها دون بنات الفصل .
لماذا ؟ هذا ما لم تكن تعرفه بالضبط ، لم تكن هناك دلائل مادية

عليه ، ولكنها كانت تحسه ، وتحسه بقوة ، خاصة حين تقابلها صدفة فى فناء المدرسة وتنظر اليها ثم تبتسم . لم تكن تبتسم لكل البنات ، نعم لم تكن تبتسم لكل . ثم كان ذلك اليوم التاريخى ، حين جاء مفتش الكيمياء وسألت المدرسة سؤالاً لم تعرفه واحدة من الفصل سوى فؤادة ، فى ذلك اليوم سمعت صوت المدرسة يقول لها أمام الفصل كله وأمام المفتش أيضاً : فؤادة شىء آخر غير باقى بنات الفصل . قالت هذه الجملة بنصها لا تزيد ولا تنقص حرفاً ، فهى محفورة فى مخها كما نطقتها بحروفها المتشابكة ، والمسافات التى تفصل الكلمة عن الكلمة ، ونقطة الحروف وفواصلها ، وانحفار كلمتى « شىء آخر » بدرجة أشد ، وامتداد الشرطة فوق الألف فى كلمة آخر ، تماماً وبالضبط ، وفقاً للدرجة التى ضغطت بها المدرسة على كل حرف وزمن كل سكتة بين كلمة وكلمة .

نعم ، أصبحت فؤادة تحب الكيمياء ، لم يكن حبا عاديا كحبها للجغرافيا والهندسة والجبر ، ولكنه كان حبا غير عادى . كانت تجلس فى حصة الكيمياء فتصيب عقلها انتفاضة غريبة كالمنطة ، ويصبح كل شىء من حولها قابلاً للالتصاق بمخها ، صوت المدرسة ، كلماتها ، لفتاتها ، جزئيات المواد المسحوقة التى قد تتطاير فى الهواء ، القطع المعدنية التى قد تتفرق فوق المنضدة ، ذرات الإبخرة والغازات التى قد تطير فى الجو ، كل ذرة ، كل اهتزازة ، كل ذبذبة ، كل حركة وكل شىء ، يلتقطه عقلها ، كما يلتقط المغناطيس ذرات المعادن من فوق الخشب .

وكان طبيعياً بعد كل هذا أن يصبح عقلها كيميائياً ، وتتخذ الأشياء من حولها أشكالاً وأوصافاً كيميائية ، لم يكن غريباً عليها أن نحس يوماً أن مدرسة التاريخ قد صنعت من النحاس الأحمر ، وأن مدرسة الرسم صنعت من الجير المطفى وأن الناظرة صنعت من

المنجنيز ، وان غاز كبريتيد الايدروجين ينبعث من قم مدرّس العربي ،
وان صوت مدرّسة الصحة والاشياء كصوت احتكاك قطع الصفيح .
أصبح للمدرّسين والمدّرّسات جميعا صفات معدنية الا شخصا
واحدا ، كان هو مدرسة الكيمياء . كان صوتها وعيناها ، وشعرها ،
وكتفها ، وذراعاها وساقها وكل شيء فيها أعضاء انسانية حية
متحركة تنبض كشرايين القلب . كانت انسانا حيا من لحم ودم
لا يمكن أن يمت الى المعادن بصلة .

لكن صوتها كان أبرز ما فيها ، كانت له نكهة حلوة كنكهة
ببرتقالة فوق شجرة ، أو زهرة ياسمين صغيرة السن مغلقة لم تفتح
ولم تلمسها اصبع . وكانت فؤادة تجلس في حصة الكيمياء وتفتح
للصوت الحلو عينيتها وأذنها وأنفها ومسام جسمها وتدخل الكلمات
من هذه الفتحات جميعا كهواء نقي دافئ .

وفي يوم حمل اليها الصوت قصة اكتشاف الراديوم ، كان قد
حمل اليها من قبل أسماء رجال كثيرين اكتشفوا اشياء وكانت
تقرض أظافرها وهي تسمع وتقول لنفسها لو كنت رجلا لاستطعت
مثلهم ، وتحس بطريقة خفية ان هؤلاء المخترعين لا يزيدون عنها
قدرة على الاكتشاف ولكنهم رجال . نعم ، الرجل قد يفعل شيئا
لا تفعله المرأة لمجرد أنه رجل . انه ليس أكثر قدرة ، ولكنه ذكر .
وكان الذكورة في حد ذاتها شرط من شروط الاكتشاف .

ولكن ، ها هي امرأة تكتشف شيئا ، امرأة مثلها وليست
ذكرًا . وبدأ الاحساس الخفي بقدرتها على الاكتشاف يقل اختفاء ،
وأصبحت على استعداد لأن تتأكد أن هناك شيئا ما حولها ينتظرها
لترفع عنه الحجاب وتكتشفه ، شيء موجود كالصوت والضوء
والغازات والبخار واشعاعات اليورانيوم ، نعم ، شيء موجود لكن
أحدا غيرها لا يحس وجوده .

وجدت فؤادة جسمها ممدداً فوق سريرها وعيناها تحملقان في السقف ، ليس في السقف كله ، وانما في دائرة صغيرة مشرشرة سقط الطلاء الابيض من فوقها فأصبحت بلون الاسمنت . كانت تحس ألما في قدميها من كثرة ما تجولت في الشوارع المتفرعة من ميدان التحرير . لم تكن تعرف تماما لماذا تنجول ، لكنها كانت كأنما تبحث عن شيء . ربما كانت تبحث عن فريد فيمن يقابلها من الناس ، لانها كانت تحملق في وجوه الرجال ، وتفحص الرفض التي تمر من وراء زجاج عربة أو تاكسي . ربما كانت تبحث عن شقة خالية ، لانها كانت تتوقف هنا وهناك أمام العمارات الجديدة وترمق البواب بنظرة طويلة حائرة .

ولكنها الآن تحملق في رقعة السقف المشرشرة بغير تفكير في شيء محدد . وسمعت صوت قدمي أمها تزحفان في اتجاه حجرتها فشددت اللحاف بسرعة فوق جسمها وأغمضت عينيها متظاهرة بالنوم العميق . وسمعت صوت انفاس أمها اللاهثة وعرفت انها واقفة على عتبة الباب تتأملها وهي نائمة ، وحرصت فؤادة على أن تبقى بغير حركة وتركت صدرها يعلو ويهبط في تنفس عميق منتظم . ثم سمعت صوت القدمين تزحفان بعيدا عن حجرتها ، وكان يمكن أن تفتح عينيها وتعود تحملق في السقف ، لكنها شعرت براحة وهي مغمضة العينين ، وفكرت في أن تنام ، لكنها قفزت من السرير بسرعة ، فقد خطرت لها فكرة ، وأدخلت نفسها في المعطف الكبير واتجهت الى باب حجرتها ، لكنها توقفت لحظة كأنما تذكرت شيئا ، وسارت الى التليفون وأدارت القرص الخمس الدورات ، وجاءها الجرس عاليا حادا لا ينقطع ، فوضعت السماعة وخرجت من البيت مسرعة . كانت تسير بسرعة ، توجه قدميها من هذا الشارع الى ذلك ، تقفز في أتوبيس تعرف رقمه ثم تنزل في محطة تعرفها كل المعرفة ، تنحرف الى يمينها في شارع جانبي صغير تعرف أن في نهايته بيتا أبيض ، من ثلاثة أدوار ، له باب صغير خشبي .

ورأت البواب الأسمر جالسا على دكته فى مدخل السلم، وكانت على وشك أن تسأله عن فريد لكنها تجاهلت نظرتة الفاحصة المستطلعة الخاصة بكل البوابين ، انه يعرفها ، وقد رآها مرات ومرات تصعد الى شقة فريد ، لكنه كان دائما وفى كل مرة يصوب اليها النظرة نفسها الفاحصة المستطلعة ، وكأنه لا يعترف بكل تلك العلاقة بينها وبين فريد . وصعدت السلم فى نفس واحد ، ثم وقفت تلهث أمام الباب الخشبي ذى اللون البنى القاتم ، ورأت نافذة المطبخ المظلة على السلم مفتوحة ، ان (فريد) موجود ، لم تحدث له حادثة كما تصورت ، ولم تخطفه السماء ، ودق قلبها بعنف وفكرت فى أن تعود بسرعة قبل أن يراها . لقد أخلف الموعد عن عمد لا عن عجز ، ولم يطلبها فى التليفون بعد كل ذلك ليشرح السبب . وكان يمكن أن تستدير وتعود لكنها لم تر نورا من خلال زجاج الشراعة . كانت الشقة مظلمة تماما . ربما يكون فى حجرة النوم يقرأ ، ونور حجرة النوم لا يصل الى شراعة الباب .

وضغطت بأصبعها على الجرس ، وسمعت صوت الجرس الحاد وهو يرن فى البيت ، وظلت ضاغطة بأصبعها والصوت يرن عاليا حادا فى الصالة دون أن يفتح أحد الباب . ورفعت يدها عن الجرس فانقطع الصوت ، وعادت فضغطت على الجرس ، وعاد الصوت العالى الحاد يرن فى ارجاء الصالة دون أن يفتح أحد . وألصقت أذنها بالباب لعلها تسمع صوت حركة داخل الشقة ، أو أنفاسا مكتومة ، أو أنينا . لكنها لم تسمع شيئا ، وفجأة سمعت صوت جرس التليفون ينبعث من حجرة المكتب وانتفضت الى الوراء ، فقد خيل اليها انها هى التى تطلبه من بيتها ، ولكنها تذكرت انها تقف وراء الباب ، ولا يمكن أن تكون هى التى تطلبه الآن . وظل جرس التليفون يرن بضع لحظات ثم انقطع وعادت فالصقت أذنها بالباب ولم تسمع شيئا ينم عن وجود كائن حى بالشقة ، وسمعت صوت كعب عال رفيع يهبط السلم فابتعدت عن الباب قليلا

وضغطت على الجرس مرة أخرى ، واستطاعت أن ترى بطرف
عينها امرأة سمينة تهبط السلم ، وظلت ضاغطة على الجرس
شاخصة الى الأمام ، حتى اختفت المرأة فى ثنية السلم ، وانتظرت
بضع لحظات أخرى حتى انقطع صوت الكعب الرفيع الثقيل على
السلم ، فبدأت تهبط الدرجات بخطوات بطيئة ثقيلة .

تركت قدميها تسيران ، والأفكار فى رأسها تدب بصوت يكاد
يكون مسموعا ، فريد أخلف الموعد ولم يطلبها فى التلفون وليس
فى البيت فأين يمكن أن يكون ؟ لا يمكن أن يكون فى القاهرة ،
أو فى مدينة قريبة منها . لا بد انه فى مكان ما بعيد ، ليس فيه
تليفون أو مكتب بريد ، لماذا اخفى عنها سر غيابه ؟ ألم تكن
العلاقة بينهما تحتم عليه أن يقول . ولكن ما العلاقة التى تحتم على
الانسان أن يفعل شيئا معينا ازاء انسان آخر . ما ذلك الذى يحتم
عليه أن يفعل ؟ الحب !

وتكورت الكلمة فى فمها كلقمة غير قابلة للمضغ ، الحب !
ما معنى كلمة الحب . متى سمعتها لأول مرة ؟ من فم من ؟
انها لا تذكر تماما ، فالكلمة لم تغب عن أذنها منذ وعت الحياة ،
كانت تسمعها كثيرا ، ولأنها كانت تسمعها كثيرا لم تكن تعرفها ،
كأعضائها الأثوية ، تراها كثيرا ملتصقة بجسمها ، وتغسلها بالماء
والصابون كل يوم دون أن تعرفها ، وكانت أمها هى السبب ،
ربما لو ولدت بغير أم لعرفت كل شىء من تلقاء نفسها ، فقد كانت
تعلم وهى صغيرة جدا انها ولدت من فتحة فى نهاية بطن أمها ،
وأنها قد تكون هى الفتحة التى تبول منها ، أو فتحة أخرى مجاورة،
لكن أمها نهرتها حين أطلعتها على اكتشافها ، وقالت لها انها ولدتها
من اذنها . وفسدت أمها بهذا التصريح أحاسيسها الطبيعية ،
وعطلت ادراكها لكثير من البديهيات مدة طويلة . فقد ظلت فترة من
لزم من تحاول خلق علاقة ما بين سماع الاصوات والولادة ، وتشككت

أحيانا في أن الاذن خلقت للسمع ، وانها ربما صنعت لتبول منها النساء بعد الزواج . لم تكن تدري لماذا تربط دائما بين الولادة والتبول وتحس أنهما لا بد وأن يكونا قريبين . وظلت تبحث عن موقع الفتحة التي خرجت منها الى العالم ، وظنت انها ستدرسها في حصة التاريخ ، أو الجغرافيا ، أو الصحة والاشياء ، لكنهم درسوا لها كل شيء الا هذا . أخذت حصة عن الدجاج وكيف يبيض ويقف ، وحصة عن السمك وكيف يتناسل ، وحصة عن التماسيح والثعابين وكل الكائنات الحية ماعدا الانسان ، حتى النخل درسوا لها كيف يلحق بعضه البعض . أيمن أن يكون النخل أكثر أهمية عندهم من أنفسهم ؟ . وقبل نهاية العام رفعت اصبعها وسألت مدرسة الصحة والاشياء فاعتبرت سؤالها خروجاً عن الادب ، وعاقبتها بالوقوف أمام الحائط رافعة ذراعيها . وتساءلت فؤادة وهي تحملق في الحائط لماذا تلحق النباتات والحشرات والحيوانات بعضها البعض ويعتبرون ذلك علما من العلوم ، وفي حالة الانسان يعتبرونه شيئا فاضحا يستحق العقاب ؟



وجدت فؤادة نفسها تسير في شارع النيل ، كان الظلام الكثيف يغطي سطح الماء ، وأنوار المصابيح المستديرة منعكسة على الجانبين ، وبدا النيل وهو يزحف في الظلام طويلا ممشوقا كجسم امرأة لعوب متمشحة بالسواد حدادا على زوج تكرهه ، وقد رشقت على جانبي رداؤها الاسود حبات من اللؤلؤ المغشوش . وتلفتت حولها . كان كل شيء في الظلام يبدو لعوبا مغشوشا ، حتى باب المطعم الصغير الذي انتشرت فوقه لمبات ملونة رخيصة أشاعت حوله ظللا غريبة كالاشباح . ومرت أمام الباب دون أن تدخل . لكنها عادت الى الورا خطوة ودخلت ، وسارت في الممر تحت الشجر ، وانحرفت في نهاية الممر لتلقى نظرة على المائدة ، لم تكن خالية ، كان يجلس اليها رجل وامرأة ، وكان الجرسون يضع أمامهما الاكواب

والصحون ، ويبتسم لهما الابتسامة نفسها التي كان يقدمها لها
ولفريد . واستدارت بسرعة قبل أن يراها وخرجت من المطعم .

سارت في شارع النيل مطرقة ، ما الذي أتى بها الى هنا ؟
ألا تعلم أن هذه الامكنة متواطئة مع فريد ، تعلن غيابيه وتخفيه ،
يكتنفها الرياء والتناقض كأي موظف خبير . وخبطت بحذائها الارض
في غضب ، مالذي أتى بها الى هنا ؟ فريد هجرها واختفى فلماذا
تحوم حول أمكنته ؟ لماذا ؟ لا بد أن تلفظه من حياتها كما
لفظها من حياته . نعم ، لا بد .

واستراحت لهذا التهديد ، ورفعت عينيها لتتأمل الطريق ،
لكن قلبها دق بعنف ، فقد رأت رجلا له مشية فريد مقبلا من بعيد .
وأسرعت الخطى لتقترب منه ، كان يميل بكتفيه الى الامام قليلا
وينقل قدميه فوق الارض ببطء يشبه الحذر ، حركات فريد نفسها ،
واقتربا أكثر وأكثر ، انه يحرك ذراعيه بشكل ملحوظ ، وفريد
لم يكن يحرك ذراعيه بهذا الشكل الملحوظ ، ولكن ربما يكون متعجلا
لبلوغ المطعم بعد كل هذا الغياب ، وأصبح على بعد خطوات منها
وفتحت فمها لتتهتف : فريد ، لكن نور عربة مارة أزاح الظلام عن
وجه آخر غير وجه فريد . وغاص قلبها في بطنها كقطعة من حديد
وانكلمت حول نفسها داخل المعطف ، وهز الرجل رأسه الاكتر
في ايماءة لزجة ، فأشاحت بوجهها بعيدا عنه وأسرعت الخطى ، لكنه
سار وراءها يهمس بكلمات مبتورة غير مفهومة وتركت شارع النيل
لتدخل في شارع جانبي ، فدخل وراءها ، وظل يطاردها من شارع
الى شارع حتى وجدت نفسها أمام بيتها .

فتحت باب الشقة وهي تلهث ، ولم تسمع صوت أمها ،
فسارت على أطراف أصابعها لتجتاز الصالة ، ورات أمها من خلال
بابها المفتوح نائمة في سريرها على جانبها الايمن ، ورأسها الملتف

بالطرحة البيضاء مرتفعا فوق الوسادتين السميكتين ، وجسمها
النحيل مختفيا تحت الغطاء الصوفى المزدوج .

دخلت فؤادة حجرتها وأغلقت الباب ، وظلت واقفة في وسط
الحجرة بضع لحظات ثم بدأت تخلع ملابسها ، وارتدت قميص نومها ،
وخلعت الساعة ووضعتها على الرف بجوار التليفون ، ومست يدها
جسم التليفون البارد فأحست برجفة ونظرت في الساعة ، كانت
الثانية عشرة ، أيكون فريد في البيت ؟ . . أتجرب وتطلبه ؟ . .
ولكن ، ألا يجب أن تكف عن هذه المطاردة ؟ . . ولكن يمكنها أن تطلب
الرقم فإذا جاءها صوته يقول « ألو » قفلت السكة . نعم ، هكذا لن
يعرف من الذى يطلبه .

ووضعت أصبعها في قرص التليفون وأدارته الخمس الدورات ،
وجاءها الجرس المعهود ، وقد ارتفع صوته الحاد في سكون الليل ،
وكتمت فوهة السماعة بكفها وقد ظنت ان الرنين العالى قد يوقظ
أمها من النوم . وظل الجرس يهدر في اذنها كذئب جائع يعوي ،
يرتطم صداه برأسها ويرتد عنه كأنه جدار مصمت من الحجر .

وضعت السماعة في مكانها فانخمد الهدير ، وألقت جسمها
فوق السرير واغمضت عينيها لتنام . لكنها لم تنم . ظل جسمها
فوق السرير ممدودا ورأسها فوق الوسادة ، وفتحت عينيها فرأت
الدولاب والمرآة والسماعة والرف والنافذة ، والسقف الابيض
بالدائرة المشرشرة التى سقطت الطلاء من فوقها ، واغمضت عينيها
وجعلت صدرها يعلو ويهبط في أنفاس عميقة منتظمة ، لكنها لم تنم ،
ظل جسمها موجودا بوزنه وكثافته فوق السرير . وانقلبت فوق
بطنها ودفنت وجهها في الوسادة وتظاهرت بأنها قد غابت عن
الوعى ، لكن وعيها ظل موجودا ، وجسمها ظل ممدودا تحت الغطاء
الصوفى الخشن ، وانقلبت مرة أخرى فوق جنبها الايسر وفتحت
عينيها فلم تر الا الظلام الكثيف ، وخيل اليها انها لازالت مغمضة

العينين ، أو انها فقدت البصر ، لكن خطأ رفيعا من الضوء ما لبث أن ظهر فوق الحائط . وضغطت برأسها على الوسادة وشدت الغطاء لتغطي عينها . لكنها لم تنم . ظل رأسها بثقله المعهود فوق الوسادة ، وطنين خافت بدأ يرن ، بدأ خافتا جدا ثم أصبح يعلو شيئا فشيئا حتى أصبح أزيزا حادا متصلا كرنين جرس لا ينقطع . وخيل اليها ان سماعة التلفون ملتصقة بأذنها فمدت يدها تحت رأسها فلم تجد الا الوسادة . وانقطع الطنين حين رفعت أذنها عن الوسادة ثم عاد يطن مرة أخرى . وكتمت أنفاسها لحظة فوضح لها مصدر الصوت ، كان هو تلك الضربات المتتالية المألوفة لقلبها . ولكنها لم تكن مسموعة في أية ليلة سابقة بمثل هذه القوة كمطرقة ، وبمثل هذا التتابع والاستمرار . . . كانت في أى ليلة سابقة تضع رأسها فوق الوسادة ولا تسمع شيئا ، وما هي الا لحظات حتى تنام . كيف كانت تنام . . . حاولت أن تعرف كيف كانت تنام كل ليلة . لكنها اكتشفت فجأة أنها لا تعرف تماما كيف كانت تنام . كان جسمها يثقل وكأنه يسقط في بئر ثم تفقد الوعي . وتذكرت أنها حاولت مرة أو ربما مرتين أن تعرف كيف تفقد الوعي في النوم ، ففتحت عينيها قبل أن يتلاشى وجودها وتشبثت بقوة بأخر لحظة في وعيها لتعرف ماذا يحدث لها ، لكن النوم كان يغلبها دائما قبل أن تعرف .

انها لم تعرف شيئا ، انها لا تعرف أبسط الاشياء ، لا تعرف البديهيات ولا تتعلم من التكرار ، كم ليلة نامتها في كل عمرها . . . عمرها الآن ثلاثون عاما ، وكل عام ثلاثمائة وخمسة وستون يوما ، لقد نامت عشرة آلاف وتسعمائة وخمسين ليلة دون أن تعرف كيف تنام .

وضغطت برأسها فوق الوسادة ، ودوى الطنين في رأسها ، رأس مصمت من الحجر ، رأس جماد لا يعرف شيئا ، لا يعرف أين اختفى فريد ، ولا يعرف لماذا دخلت كلية العلوم ، ولا يعرف لماذا

اشتغلت في قسم الابحاث الكيمائية الحيوية ، ولا يعرف ما البحث الكيمياءى الذى يجب أن يبحث ، ولا يعرف الاكتشاف القديم المزمع الذى يجب أن يكتشف ، ولا يعرف كيف كانت تنام . نعم ، رأس مصمت من الحجر جاهل لا يعرف شيئا ، وغير قادر على شيء ، سوى أن يردد ذلك الصدى الاجوف كأي حائط أو جدار .

وخيل اليها ان جدارا عاليا ثقيلًا سقط فوقها ، فاندك جسمها في بطن الارض ، وأحسست بالمياه تحوطها من كل جانب ، كأنما تعوم في بحر ، كأن البحر عميقا كبيرا ، ولم تكن تعرف السباحة، لكنها كانت تعوم بمهارة فائقة ، كأنها تطير فوق الماء ، وكان الماء دافئا لذيذا ، وأبصرت حوتا كبيرا يزحف تحت الماء ، كان يفتح فكيه الكبيرين ، وفوق كل فك أنياب طويلة مدببة ، واقترب منها الوحش فأتاحا فاه كسرداب طويل مظلم وحاولت أن تجرى لكنها لم تستطع ، فصرخت من الفزع وفتحت عينيها .



كان نور النهار يدخل من بين شقوق الشيش الرقيقة، ورفعت رأسها من فوق الوسادة فشعرت بدوار فأعادته الى الوسادة ، ثم مدت ذراعها وسحبت الساعة من فوق الرف ، وما ان ألقت نظرة عليها حتى قفزت من السرير وارتدت ملابسها بسرعة ، وابتلعت كوب الشاي البارد الذى أعدته أمها وخرجت الى الشارع .

لفتح وجهها الهواء البارد فأحسست بانتعاش وراحت تحرك ساقيها وذراعيها في نشاط . ولكنها أحسست فجأة باللم في معدتها، فأبطأت الخطى ، وضغطت بأصبعها على المثلث المنفرج تحت ضلوعها، كان الألم تحت أصبعها ، غائرا في لحم بطنها ، يقرص جدار معدتها كدودة لها أسنان . انها لا تعرف ما سبب هذا الألم الغريب الذى يفاجئها كل صباح .

ووقفت على محطة الاتوبيس وجاء الاتوبيس رقم ٦١٣ الذى يمر في شارع الوزارة ، وقف أمامها وتلكأ لتركبه ، ولكنها لم تتركب .

وقفت تحملق فيه كتمثال • وتحرك الاتوبيس فتنبهت الى انها يجب أن تركب وأسرعت تجرى وراءه لكنها لم تلحقه • وعادت لتقف فى المحطة وهى تشعر بشيء من الراحة ، انها لن تذهب الى الوزارة اليوم • أجازاتها انتهت كلها ، ولكن ما الذى سيحدث لو انها لم تذهب اليوم •• هل سيتغير شيء فى العالم •• ان موتها كله وغيابها بلحمها ودمها عن العالم لن يحدث شيئا ، فما قيمة غيابها يوما عن الوزارة ••؟ فراغ سطر واحد من دفتر الحضور والانصراف القديم الذى بليت جلده ••

وأشرق الدنيا من حولها لهذا الخاطر ، وتلفتت حولها تنظر الى الناس باستخفاف وهم يهرولون لاهثين وراء الاتوبيسات ويقذفون بأنفسهم داخلها أو خارجها كالعميان • لماذا يجرى هؤلاء الجهلة ؟ •• هل يعرف أى واحد فيهم كيف نام ليلة أمس ؟ •• هل يعام كل واحد منهم أنه لو سقط تحت العجسالات ومات ، أو أن الاتوبيس كله انقلب به وبكل من فيه وغرق فى النيل ، هل يعلم أن ذلك لا يعنى شيئا للعالم ؟ ••

ورأت أتوبيسا يقف أمامها ، وكان فيه بعض مقاعد خالية ، فقفزت فيه بسرعة وجلست بجوار رجل عجوز • كان الرجل يمسك بأصابعه المرتجفة سبحة صفراء ويتمتم بصوت هامس : يا حفيظ ! يا حفيظ ! •• احفظنا يا رب ! •• احفظنا يا رب ! •• كان يطل من خلال زجاج النافذة ويتطلع الى السماء من حين الى حين بعينين متاكلتين لا رموش لهما • وتصورت فؤادة ان الرجل قد أصيب تواءً بكارثة فابتسمت له فى رقة لتواسيه ، لكنه ذعر وانكمش فى كرسيه مبتعدا عنها وأصق جسمه الناحل بالنافذة • وقالت لنفسها وهى تنظر الى الناحية الاخرى : ياللدعر الذى يملأ العالم ! ••

فى الناحية الاخرى كانت امرأة شابة تقف الى جوارها ، وقد

أصبح الاتوبيس مزدحما بالواقفين كالعادة . كان يفوح من المرأة رائحة عطر وفوق وجهها تلك الطبقة المعهودة من البودرة ، وفوق شفيتها ذلك الطلاء الاحمر القسائي ، كانت نحيلة الجسم وقصيرة حتى ان بطنها كان يرتطم بكتف فؤادة وهي جالسة ، لكن ردفها كانا سمينين وبارزين خلفها .

ونفضت فؤادة فجأة بغير داع ، فاندفعت المرأة فى مقعدها وجلست مكانها تنفخ من الغيظ ، وشقت لنفسها طريقا بين الاجسام ثم قذفت بنفسها من الاتوبيس قبل أن يتحرك من المحطة ، وارتطمت قدمها بالارض وكادت تقع لكنها استطاعت أن تنتصب واقفة ، ورفعت رأسها لترى أين هي ، ووجدت نفسها أمام سور الوزارة الصدى .

وكانما سقط فوق رأسها كوز ماء بارد فأفاقت ، وتذكرت انها لم تكن تنوى المجيء الى الوزارة ، لكن قدميها حملتاها بغير وعى فى الطريق اليومى المعتاد ، كحمار يفتحون أمامه باب الزريبة فيخرج وحده الى الحقل ، خروجا غير ارادى ، ولانه غير ارادى فهو طبيعى جدا ، كخروج طفل من بطن أمه .

ورفعت عينيها الى المبنى الكالح فرأته بارزا فى الفناء ومفلطحا كبطن أمها ، تنتشر فوق سطحه الاسمر القساتم شقوق طولية وعرضية كتجاعيد الجلد ، وبدأت تشم الرائحة الغريبة ، كتلك التى تشمها فى أقسام الولادات بالمستشفيات ، أو فى دورات المياه النتنة ، وتعثرت فى خطواتها وبدا الغثيان يشتد فقد عرفت انها تقترب من مكتبها .

كان مدير القسم غاضبا ، يتكلم بصوت عال تناثر له لعابه كالشظايا الشفافة الصغيرة ، طارت واحدة منها واستقرت فوق خدها ، تركتها فى مكانها ولم تمسحها بمنديلها نفاقا له . وسمعته

يقول : انصرفت من مكتبك أمس قبل الموعد الرسمي المحدد بثلاث ساعات ونصف ! ٠٠ وصفت كلمة أمس أذنفا فقالت بنصف وعى : أمس ! ٠٠ وانقلبت شفنا المدير الغليظتان الى الخارج وهز صلته اللامعة وهو يصيح : نعم أمس ٠٠ هل نسيت ؟ ٠٠ وقالت كأنما تكلم نفسها : لم أنس ، ولكنى كنت أظن ان ذلك حدث .. (وابتلعت بقية الكلمات دون أن يسمعا أحد) منذ أسبوع أو أسبوعين .

وراح المدير يتكلم بصوت عال ، لكنها لم تكن تسمع ، كانت تفكر باندهاش فى الطريقة التى يعيش بها الناس الزمن ، وكيف لا يتفق الاحساس بالزمن أحياناً مع عدد الساعات أو الدقائق التى مرت ، وهل يمكن ان تكون تلك الحركة الثابتة المتتابعة لعقربى الساعة داخل تلك الدائرة الضيقة المحدودة مقياساً حقيقياً للزمن ؟ ٠٠ فكيف يمكن اذن أن يقاس شىء غير مرئى وغير محدود بشىء مرئى محدود ؟ ٠٠ وكيف نقيس شيئاً لا نراه ولا نحسه ولا نلمسه ولا نذوقه ولا نشمه ولا نسمعه ؟ ٠٠ كيف يمكن أن نقيس شيئاً غير موجود بشىء موجود ؟

وخطرت ببالها فكرة ظنت أنها لم تخطر ببال أحد ، وأحست بفرحة سرية أخفت معالمها عن مدير القسم ، ولم تعرف لماذا أو كيف فتحت فمها ، فجأة وقالت لمدير القسم بصوت مسموع : اننى أعمل فى قسم الأبحاث منذ ست سنوات ، وأعتقد أن من حقى أن أقوم ببحث منذ اليوم .

وكانما تفوهت بلفظ جارح أو كلمة نابية فامتعت صلته باللون الأحمر وبدا شكله وهو جالس وراء المكتب كقرود يجلس فوق رأسه ويرفع مؤخرته فى الهواء .

وفلتت من بين شفتيها ابتسامة للمنظر ، فسمعتة يقول فى غضب : لماذا تبترسين هكذا ؟ ٠٠ وزمت شفتيها حتى لا ترد لكنها

قالت : لك ان تحاسبني على الزمن الذي غبته ولكن ليس من حقلك
ان تسألني لماذا ابتسم هكذا !

وتصورت ان غضبه سيشتمد، وان صوته سيزداد ارتفاعا لكنه
سكت فجأة وكأنما فوجيء بقدرتها الحارقة على الرد . وشجعها
صمته على ان تتظاهر بالغضب فقالت وهي ترفع صوتها بدرجة
أعلى : أنا لا أقبل أن يدوس أحد مهما كان على حق من حقوقي ، فأنا
اعرف كيف أدافع عنها ! . . . واستحال احمرار صلغته الى لون
أصفر باهت فبدت كرأس شمامة وقال بصوت مندهش : وما
حقوقك التي دست عليها . . . ، فلوحت بيدها في الهواء وهي
تصيح : لقد دست على حقين هامين من حقوقي . . الحق الاول حين
سألتنى لماذا تبتسمين ؟ . . . والحق الثاني حين أكملت السؤال قائلا:
هكذا ؟ أما الحق الأول فهو حقى فى الابتسام ، وأما الحق الثانى فهو
حقى المطلق فى اختيار الطريقة التى أبتسم بها .

واتسعت عيناه المدفونتان فى وجهه وأزاحتا عنهما بعض
ما حولهما من لحم مكتنز وقال فى دهشة بالغة : ما هذا الكلام
الذى تقولينه يا آنسة ؟ . . . ولم تعرف فؤادة كيف سيطر عليها
الغضب فقالت بغير ارادة : من قال لك اننى آنسة ؟ . . . واتسعت
عيناه أكثر وهو يقول : ألسنت آنسة ؟ . . . وهنسا خبطت فؤادة
بيدها فوق المكتب وصاحت : كيف يمكن ان تسألنى هذا
السؤال ؟ . . . ما الذى أعطاك هذا الحق ؟ اللائحة . . . !

لم تدر فؤادة كيف انقلب المشهد بهذه السرعة ، فأصبحت
هى الغاضبة ، وهى صاحبة الحق فى الغضب ، وأصبح مدير
القسم فوج حالة اقرب الى الخوف منها الى الدهشة ، وضاعت من
عينيه تلك النظرة الشرسة التى يصوبها الى مرءوسته ، وحلت
محلها نظرة مستأنسة بل ومتهيبة أيضا تشبه الى حد كبير تلك

النظرة التي ينظر بها الى وكيل الوزارة ورؤسائه من مديري العموم .
وسمعه يقول بصوت كان يمكن أن يكون رقيقا لو أنه مارس الكلام
بصدق لعدة سنوات سابقة : يبدو انك متعبة اليوم ، فانت في
حالة غير طبيعية ، انى اعتذر لك اذا كنت قد آلتك بكلمة . ووضع
أوراقه تحت ابطه وغادر الحجرة ، وتأملت ظهره وهو يخرج من
الباب ، كان مقوسا كظهر العجائز ، لكنه لم يكن تقوس الشيخوخة
وانما ذلك التقوس المبكر الذى يصيب ظهور الموظفين من كثرة
الانحناء والانشاء .

خرجت فؤادة فى ذلك اليوم من الوزارة ، وما ان ابتعدت
عن السور الحديدى الصدى حتى قالت لنفسها : لن أعود أبدا
الى هذا القبر الآسن ، ولم تعلق أهمية كبيرة لهذه الجملة ، فقد كانت
تقولها لنفسها كل يوم منذ ست سنوات ، وسارت الى محطة
الأتوبيس لتعود الى بيتها ، لكنها بلغت المحطة ولم تتوقف ،
ظلت قدمها تسيران فى الشارع . لم تكن تعرف الى اين هي
ذاهبة لكنها ظلت تسير بغير هدف ، ونظرت الى الناس وهم يسرون
متجهين بسرعة وباصرار سابق نحو هدف محدد يعرفونه ، وتعجبت
بينها وبين نفسها كيف استطاعوا أن يحققوا هذه المعجزة وبهذه
البساطة الشديدة التى يحركون بها سيقانهم . ودارت حول نفسها
دورة كاملة لا تعرف أى اتجاه تسلك ، وعرفت انها وحدها داخل
دائرة مغلقة ، وان احدا لا يدور معها ، لا أحد معها ، لا أحد على
الاطلاق .

ورفعت رأسها الى فوق وهي تنهد فرأت العمارات العالية وقد
رشقت فوق جدرانها اللافئات ، وتذكرت فجأة انها اتخذت بينها
وبين نفسها قرارا وهي جالسة الى مكتبها فى ذلك الصباح ، قرارا
نهائيا غير قابل للجدل . نعم لقد قررت أن تؤجر شقة صغيرة
وتصنع منها معملها الكيماوى . وشدت قامتها وخبطت الأرض بقدمها

فى قوة . نعم ، هذا هو قرارها وهذا هو تصميمها ، وهى لن تتخلى عن قرارها أو تصميمها .

ووجدت نفسها فى شارع قصر النيل ، فسارت بخطوات بطيئة تتطلع بعينين ثابتتين الى العمارات . وتتوقف بين عمارة وأخرى وتسال البوابين عن شقة خالية . ووصلت الى نهاية الشارع من ناحية الأوبرا فاجتازته الى الرصيف المقابل ثم عادت أدراجها تفحص العمارات على الجانب الآخر للشارع .

وبينما كانت تسأل أحد البوابين نظر اليها الرجل بوجهه الأسود وعينيه الحمراءوين نظرة فاحصة ثم سألها : هل معك ألف جنيه ؟ . وقالت : لماذا ؟ . فقال : هناك شقة ستخلو أول الشهر ، لكن صاحبها يريد أن يبيع أثاثها لمن يؤجرها . وقالت : وهل الأثاث فى الشقة ؟ . قال : نعم . قالت : يمكن أن اراه ؟ . قال : نعم .

وسار البواب الى مدخل العمارة فسارت وراه ، واتجه الى المصعد ، وضغط على الرقم ١٢ باصبع رقيقة طويلة فحمية اللون لها ظفر ابيض مدبب بدا وكأنه قلم رصاص أسود له غطاء أبيض . وسألته بينما هما يصعدان : وكم حجرات الشقة ؟ . قال : اثنتان . وقالت : والايجار ؟ . قال : ستة جنيهات فى الشهر ، ايجار قديم . قالت : ومن هو صاحب الشقة ؟ . قال : رجل أعمال كبير . قالت : هل كان يسكن فيها ؟ . قال : لا ، كانت مكتبا لأعماله .

وقف المصعد فى الدور الثانى عشر ، واتجه البواب الى باب كبير بنى اللون تعلوه رقعة نحاسية صغيرة عليها رقم ١٢٩ وفتح الباب ودخل فدخلت وراه الى صالة صغيرة بها كنبه عريضة تهدلت بطنها وكادت تسقط فوق الأرض ، وكريسيان كبيران قديمان ، ومنضدة خشبية كالحة اللون ، ثم دخلت الى الحجرة الأولى فرأت

سريرا عريضا من الصاج الأزرق وكرسيا كبيرا وشماعة ، ودخلت الى الحجرة الثانية وكانت تظن ان بها المكتب ولكنها رأت سريرا آخر ودولابا ومرآة . واستدارت الى البواب قائلة : وأين هو المكتب ؟ وانقلبت شفتا البواب الزرقاوان فتعري بطنهما الأحمر النسدي وقال بصوت غليظ : لا أعلم ، أنا بواب العمارة فقط ! . . . ، وعادت فؤادة تتجول فى الشقة ، وتنظر من النوافذ ، كانت الشقة تطل من ارتفاعها الشاهق على قلب مدينة القاهرة ، وتكشف الشوارع الرئيسية والميادين ، والكبارى وافرع النيل . لم تكن فؤادة قد صعدت الى هذا الارتفاع من قبل ، فبدت لها مدينة القاهرة أصغر بكثير مما كانت تظن ، وبدا لها الزحام الذى كان يبتلعها ، والأتوبيسات الكبيرة التى كان يمكن أن تسحقها ، والشوارع الكبيرة الطويلة المتشابكة التى كان يمكن أن تنوء فيها ، كل ذلك . بدا تحت عينيها ككتل صغيرة تزحف كقطع الشطرنج .

وأحست بلذة غريبة ازاء هذا التصغير الواقعى لكل شىء فى الحياة ماعدا نفسها ، فقد كانت هي هي ، بحجمها المألوف ، ووزنها العادي تقف فى النافذة ، بل نعلها زادت حجما ووزنا بالنسبة لما تراه تحتها .

وتنبهت على صوت البواب يقول : هل أعجبتك الشقة ياهاشم ؟ واستدارت اليه وهى تقول كالحالمة : نعم ، ولكن عينيها اصنطدمتا بالسريير الصاج فقالت : ولكن . . . ألا يمكن تخفيض الألف جنيه . . . ان هذا الأثاث لا يساوى أكثر من . . . وسكتت ، وهمس البواب فى اذنها : انه لا يستحق شيئا ، ولكن الشقة . . . هذه الشقة الآن لا تؤجر بأقل من ثلاثين أو أربعين جنيهها فى الشهر . وقالت : هذا صحيح ، ولكن لو بعث نفسى فى السوق . الآن فلن أحصل على ألف جنيه . وابتسم الوجه الأسود كاشفا عن أسنانه ناصعة البياض وقال : أنت تساوي ثقلك ذهباً . وانشرح

صدر فؤادة للمجاملة العابرة انشراحا كبيرا خيل اليها انها لم تحسه منذ زمن بعيد وابتسمت ابتسامة عريضة وهي تقول : أشكرك يا عم . . وقال البواب : عثمان ، فقالت : أشكرك يا عم عثمان .

وهبطا في المصعد الى الدور الأرضي ، وصافحت البواب وشكرته وتركته لتواصل سيرها ، لكنه قال : لماذا تؤجرين شقة يا هانم ؟ . . للسكن ؟ وقالت فؤادة : لا ، ستكون معملا كيماويا . وصاح بغير فهم : كيماويا ؟ . . وقالت : نعم كيماويا . وكشف مرة أخرى عن أسنانه البيضاء وقال كأنه فهم : نعم نعم كيماويا ، انها شقة مناسبة جدا لأن تكون كذلك . وقالت فؤادة : انها مناسبة جدا ولكن . . وقرب البواب فمه الأزرق من أذنها وقال : يمكنك التفاهم مع صاحب الشقة ، قد يخفض المبلغ الى ستمائة جنيه ، أنت أول من أقول له هذا السر ، ولكنك انسانية طيبة القلب وتستحقين كل خير . وقالت فؤادة لنفسها ستمائة جنيه ؟ يمكن أن تعطيتها أمها ستمائة جنيه ؟ . . ونظرت الى البواب بعينين حائرتين وقال الرجل : يمكنني أن أحدد لك موعدا مع صاحب الشقة اذا وافقت على ذلك . وفتحت فمها لتقول لا ، لكنها قالت نعم . وقال : غدا الجمعة ، وهو يأتي هنا كل يوم جمعة ليتفقد أحوال العمارة ، وابتسم في زهو : انه صاحب العمارة أيضا . وقالت : ومتى يكون هنا ؟ . . في أى ساعة ؟ وقال : في العاشرة صباحا تقريبا . وقالت : سأتي في العاشرة والنصف ، ولكن عليك أن تخبره انني لا أملك ستمائة جنيه الآن . وقال البواب : يمكنك أن تدفعي ما معك وتقسّطي الباقي . يمكنني أن أتوسط لك عنده في هذه النقطة وهو لن يتشدد ، وقرب فمه الأزرق مرة أخرى وقال : فالشقة خالية منذ سبعة شهور ولكن لا تظهرى له انك تعرفين هذه الحقيقة لأنه سيعرف انني أنا الذى قلت لك ، انت أول شخص أقول له هذا السر ، ولكنك انسانية طيبة القلب

وتستحقين كل خير • وابتسمت فؤادة وهي تقول : أشكرك يا عم
عثمان ، سوف أكافئك على هذه الخدمة الكبيرة التي اديتها لي •
وكشف الوجه الأسود عن الأسنان الناصعة البياض في ابتسامة
عريضة مفعمة بالأمل •

وصلت فؤادة بيتها قبل حلول الظلام ، ورأت أمها جالسة
في الصالة متهذبة بالصوف ومعها أم علي الطباخة • وما ان وضعت
المفتاح في الباب حتى هبت أم علي وصاحت من الفرح : الحمد لله
انها وصلت ، ولقت جسمها اليباس الصغير في ملاءتها السوداء
ووضعت صرتها الصغيرة تحت ابطها استعدادا للعودة الى بيتها •
ورأت فؤادة عيني أمها الواسعتين وقد طفا على سطحيهما الابيض
اصفرار باهت كالغشاء الرقيق ، واحمرت ارنبة أنفها كأنها مصابة
بزكام • وسمعت صوتها الضعيف يقول : قلقت عليك طول النهار •
لماذا لم تتكلمي في التليفون ؟ •• وقالت فؤادة وهي تجلس الى
المائدة لتأكل : لم يكن بجوارى تليفون ياماما • وقالت الأم : لماذا ••
اين كنت كل هذا الوقت ؟ •• ودست في فمها ملعقة أرز
بالصلصة وقالت : كنت ألق في الشوارع • وردت الأم في دهشة :
تلقي في الشوارع •• لماذا ؟ وانتظرت حتى ابتلعت ما في فمها
ثم قالت : كنت أبحث عن الاختراع العظيم • وارتسمت على وجه
أمها دهشة أضافت اليه بعض التجاعيد الجديدة وقالت : ماذا
تقولين ؟ •• وابتسمت فؤادة وهي تعض على قطعة لحم محمرة :
هل نسيت بسرعة دعوتك القديمة ؟ •• ورفعت فؤادة كفيها الى فوق
مقلدة حركة أمها حين تتأهب للدعاء وهتفت بلهجتها نفسها : ربنا
يفتح عليك يا فؤادة يا بنتي لتخترعي اختراعا عظيما في الكيمياء ••
وانفرجت شفتا امها اليايستنان عن ابتسامة ضيقة وقالت : ياما
دعوت لك يا ابنتي • واحست فؤادة بانتعاش ومرح وهي تلتهم
قطعة من الطماطم المتبللة بالفلفل الأخضر وقالت في سرور : يخيل

الى أن دعوتك قد وجدت باب السماء مفتوحا . وتهلل . وجه أمها
فزادت كراميشه وقالت : ماذا ؟ ٠٠ هل أعطوك علاوة في الوزارة ٠٠
أو ترقية ! ٠٠ الوزارة ! ! لماذا نطقتم بهذا اللفظ ؟ ٠٠ أما كان في
امكانها أن تنتظر حتى انتهى من طعامي ؟ ٠٠ وأحسست فؤادة بلذة
الأكل وكأنما تجهض ، وبدأ ذلك الألم المزمن يزحف الى معدتها ،
يصاحبه ذلك الغثيان الجاف بغير قيء . ونهضت لتغسل يديها
دون أن ترد ، لكن صوت أمها انبعث مرة أخرى قائلا : أفرحي قلبي
يا بنتي . هل حصلت على درجة ؟ ٠٠ وخرجت فؤادة من الحمام
ووقفت في وسط الصلاة أمام أمها وقالت : ما قيمة درجة أو علاوة
يا أمي ؟ ٠٠ بل ما قيمة الوزارة ؟ أنت تتصورين أن الوزارة شيء
ضخم عظيم ، انها ليست الا مبنى قديما آيلا للسقوط ، وانت
تتصورين انني حين أخرج كل يوم في الصباح الباكر وأعود بعد
الظهر أكون قد أديت عملا ما في الوزارة ، ولكنك لا تصدقين اذا
قلت لك انني لا أعمل شيئا ، لا أعمل شيئا على الاطلاق ، الا أن أكتب
اسمي في دفتر الحضور والانصراف ! ٠٠ ونظرت اليها أمها بعينيها
الصفراوين الواسعتين وقالت بصوت واه : ولكن ، لماذا لا تشتغلين
يا ابنتي ٠٠ انهم لن يرضوا عنك بسبب هذا ، ولن تحصل على
ترقيات ٠٠ وابتلعت فؤادة ريقها وقالت : ترقيات ٠٠ ! الترقيات
تعطى حسب شهادة الميلاد ، وحسب مرونة عضلات الظهر ! ٠٠
وقالت أمها في دهشة : مرونة عضلات الظهر ! هل أنت في قسم
الأبحاث الكيميائية أم الألعاب الرياضية ؟ ٠٠ وضحكت فؤادة
ضحكة قصيرة سريعة ثم وضعت أصبعها على فم أمها قائلة : لا تقولي
الأبحاث ، انها من الألفاظ الجارحة ! ٠٠ وقالت الأم : ماذا ؟ ٠٠ وقالت
فؤادة لا شيء ، انني أضحك معك . المسألة كلها هي انني سأشء
معملا كيميائيا .

وجلست فؤادة الى جوار امها ، وراحت تشرح لها بحماس

ما معنى أن يكون لها معمل خاص ، وانها ستجري فيه تحليلات للناس وتحصل على أموال كثيرة ، وانها الى جانب هذا ستجري فيه أبحاثا كيميائية وقد تكتشف شيئا خطيرا يغير العالم . كان لابد من هذه المقدمة الحماسية حتى تصل فؤادة الى تلك النقطة المادية السخيفة ، حين تطلب من أمها مالا . وكانت أمها تنصت باهتمام وسرور لكل ما يمكن أن تقوله فؤادة الاتسك التلميحات الخفية لمطالب مادية . وفهمت الأم المدربة أن تلك الرنة المجلوة فى صوت فؤادة انما تعنى فى النهاية مطلبا .

وقالت الأم فى النهاية : هذا شيء جميل جدا . ليس لى الا أن أدعو لك بالتوفيق يا ابنتى ، وقالت فؤادة : ولكن الدعوات وحدها لا تكفى يا أمى ، لا يمكن أن أنشئ معملا كيمياويا بالدعوات لا بد من مال لشراء الأدوات والأجهزة .

وقالت الأم وهى تنفض يديها المعروقتين : مال ؟ ٠٠ من أين المال ؟ ٠٠ أنت تعرفين « البير وغطاه » . وقالت فؤادة : ولكنك قلت مرة ان عندك ما يقرب من ألف جنيه . وقالت الأم وقد اختفت النبرة الضعيفة من صوتها : ألف ٠٠ ! لم يعد هناك ألف ١٠٠٠ ألم نسحب منها جزءا لتبييض الشقة وتجديد العفش ٠٠ هل نسيت ؟ ٠٠ وقالت فؤادة . وهل انفقت الألف جنيه كلها ؟ ٠٠ وقالت الأم وهى تمصص شفثيها اليابستين : لم يبق الا ثمن كفى . وقالت فؤادة : بعيد عنك الشر يا ماما . وقالت الأم بصوتها الواهى وقد تضعضعت نظراتها مرة أخرى : ليس بعيدا يا ابنتى ، من يدري ماذا يحدث غدا ، لقد حلمت حلما سيئا منذ أيام . وقالت فؤادة وهى تنهض : لا ٠٠ لا ٠٠ لا تقولى هذا الكلام ، ستعيشين مائة عام ، وانت الآن فى الخامسة والستين ، أى لا زال أمامك خمسة وثلاثون عاما من الحياة ، ليست الحياة العادية ، وانما الحياة

السعيدة الرغدة ، لأن ابنتك فؤادة ، سوف تحقق فى هذه السنوات المعجزات ! وتنهال الأموال عليك من السماء !

وقالت الأم وهى تبتلع ريقها الجاف : لماذا لم تدخرى بعض المال ؟ .. لقد ادخرت الالف جنيه من معاش أبيك الذى يقل عن مرتبك بثلاثة جنيهات. أين تبسدين أموالك ؟ .. وقالت فؤادة : أموالى .. ان مرتبى لا يشتري لى فستانا محترما !

وسادت لحظة صمت طويلة ، وسارت فؤادة الى باب حجرتها ، ووقفت على عتبة الباب لحظة تنظر الى أمها المتكومة تحت الأغطية الصوفية فوق الكنبة ، الكفن أم الاختراع العظيم ؟ .. أيهما أكثر أهمية أو فائدة ؟ .. وفتحت فمها لتقول فى محاولة أخيرة : كانك لن تعطينى شيئا . وقالت الأم دون أن ترفع عينيهما اليها : هل ترضين لى أن أدفن بغير كفن ؟ ..

ودخلت فؤادة حجرتها وألقت نفسها فوق السرير . لم يعد هناك أمل فى شيء ، لم يعد هناك شيء ، كل شيء اختفى ، كل شيء ضاع ، المعمل الكيماوى ، والبحث وفريد ، والاكتشاف الكيماوى ، لم يبق شيء ، لم يبق شيء إلا جسمها الكئيب الثقيل ، الذى يأكل ويشرب ويبول وينام ويعرق . ما فائدة هذا الجسم ؟ .. لماذا يبقى وحده دون كل الأشياء ؟ .. لماذا هو وحده ؟ .. داخل تلك الدائرة المغلقة ؟

كانت تحمق فى الجدار الأبيض المجاور للدولاب ، وكان هناك شيء أسود فوق اللون الأبيض ، شيء على شكل مربع ، على شكل اطار صورة . كانت الصورة لفتاة بملابس العرس البيضاء الطويلة ، تمسك بأصابعها الملفوفة كأصابع الموز باقة ورد ، والى جوارها شاب طويل الوجه له شارب أسود . كانت فؤادة منذ وعت الحياة ترى هذه الصورة معلقة فى الصالة ، ولم يحدث مرة أن

وقنت امامها ودققت النظر ، كانت أمها تقول إنها صورة زفافها لكنها كانت تراها من بعيد وكأنها صورة فتاة أخرى غير أمها .

وحدث مرة أن وقفت فؤادة أمام الصورة وتأملتتها . كان ذلك بعد موت أبيها بسنة أو أكثر ، وكانت مدرسة التاريخ قد ضربتها بالمسطرة عشرين مرة فوق أصابعها ، مرتين فوق كل أصبع ، وعادت فؤادة الى البيت تشكو لأمها ، فصفعتها أمها على وجهها بسبب اهمالها التاريخ ، ثم ذهبت الى الخياطة وتركتها بالبيت وحدها . لم تدر فؤادة يوماً لماذا وقفت أمام الصورة ، لكنها كانت تتجول في البيت وتتأمل الجدران كالسجن . ولأول مرة ترى الصورة ، لأول مرة ترى وجه أبيها ، وتأملت عينيه طويلا وخيل اليها أنهما تشبهان عينيها . وكأنما اخترق قلبها سكين حاد ، فقد اكتشفت فجأة انها تحب أباه ، وانها تريد ، تريد أن ينظر اليها بهاتين العينين وان يطوقها بذراعيه . ودفنت رأسها في وسادة الكنبه وأخذت تجهش بالبكاء . كانت تبكي لأن أباه مات دون أن تبكي ، وتمنت في تلك اللحظة أن يحيا أبوها ثم يموت مرة أخرى لتبكي ، حتى يستريح ضميرها . ومسحت عينيها في ملاءة الكنبه ونهضت وخلعت الصورة من مسامرها ومسحت التراب من فوق زجاجها ، ونظرت اليها مرة أخرى . وكأنما كان التراب يحجب عنها عيني أمها ، لأنهما ظهرتا أمامها واضحتين واسعتين فيهما نظرة غريبة لم ترها من قبل ، نظرة شرسة ظالمة . ورفعت فؤادة الصورة لتعلقها في مسامرها لكنها أخذتها معها الى حجرتها ودقت لها مسامرا بجوار الدولاب وعلقتها ، ونسيتها في ذلك المكان ولا تذكر انها نظرت اليها مرة أخرى .

أغمضت فؤادة عينيها لتنام ، لكنها أحست بشيء ما بين جفنيها ، له ملمس الدموع ، لكنه يحرق ، ودعكت عينيها وهي تمسحها بطرف ملاءة السرير وضغطت رأسها فوق الوسادة وشدت

الغطاء فوقها لتنام ، لكن الطنين بدأ يرن في أذنيها كرنين جرس خافت لا ينقطع . وتذكرت شيئا فنهضت بسرعة وأدارت قرص التليفون الخمس الدورات . وجاءها الجرس العالي الحاد . الليلة الثالثة وفريد غائب عن البيت . أين يمكن أن يكون ؟ . عند أحد أقاربه ؟ . ولكنها لا تعرف أحدا من أقاربه . عند أحد أصدقائه ؟ . وهي لا تعرف أيضا أحدا من أصدقائه . انها لا تعرف الا هو ، وهي لا تعرفه تلك المعرفة التقليدية ، لا تعرف ماذا كان أبوه ، وكم قيراطا يمكن أن يرثه عنه ، وكم يقبض كل شهر ، وكادر وظيفته والدرجة والاختصاصات ، وبيان الجزاءات والاستقطاعات ورقم البطاقة وتاريخ الميلاد . انها لا تعرف شيئا من هذه المعلومات ، ولكنها تعرفه هو بلحمه ودمه . تعرف شكل عينيه وذلك الشيء الفريد يطل منهما ككائن حي ، تعرف شكل أصابعه ، تعرف طريفته حين يفتح شفثيه ليبتسم ، تعرف صوته من بين الأصوات ، وتعرف مشيته من بين المئات ، تعرف طعم قبلته في فمها ، ولملمس يده على جسمها ، وتعرف رائحته . نعم تعرف رائحته جيدا ، تستطيع أن تميزها فهي رائحة دافئة خاصة غير عادية ، تسبقه بقليل قبل أن يأتي ، وتبقى معها بعد أن يمضى ، وتظل عالقة بملابسها وشعرها وثنيات أصابعها ، فكأنما هي شخص آخر يلازمها ، أو كأنما تنبعث منها هي لا منه هو .

ولكن ، أهذه هي المعلومات التي تعرفها عن فريد ؟ شكل الاصابع حركة الشفتين ، طريقة المشية والرائحة أيضا ! ؟ . أيمن أن تتجول هنا وهناك تتشمم رائحته وتبحث عنه في كل مكان كما يفعل الكلب البوليسى ؟ . لماذا لم تعرفه أكثر ؟ . لماذا لم تعرف وظيفته ومكان عمله ؟ . لماذا لم تعرف بيت أسرته وأقاربه ؟ . ولكنه لم يكن يقول لها . ولم تكن هي تسأله . ولمساذا كانت تسأله ؟ . انه لم يكن يسألها . كانت زميلته في كلية العلوم وكان زميلها . هكذا كانت بداية القصة .

وسمعت فؤادة صوتا الى جوارها ففتحت عينيها ، ورأت أمها واقفة الى جوار السرير . كانت عيناها أكثر اتساعا واصفرارا ووجهها أكثر تجعدا . وسمعت أمها تقول : كم يلزمك لانشاء المعمل ؟ . . . وابتلعت فؤادة ريقها وهي تقول : كم بقي معك ؟ . . . وقالت الأم : ثمانمائة جنيه وقالت فؤادة : كم يمكن أن تعطي ؟ . . . وسكتت الأم لحظة ثم قالت : مائة . وقالت فؤادة : أريد مائتين وسوف أسدها لك . ونهضت من سريرها وهي تقول : أقسم بأن أسدها لك . وقالت الام بصوت يائس : متى ؟ انك لم تسددي ديونك القديمة . ابتسمت فؤادة : وقالت : كيف أسدها ؟ انك تطالبيني بتسعة شهور الحمل وآلام الولادة ولبن الرضاعة وسهر الليالي بجوار المهد ! . . . أيمكن أن أسدد كل هذا . . . ! وقالت الأم : عوضى على الله فى هذا ، ولكن عليك أن تسددي المائة جنيه التى أخذتها العام الماضى . وقالت فؤادة فى شرود : العام الماضى !؟ وقالت الأم : هل نسيت ؟

تذكرت فؤادة ذلك اليوم من العام الماضى . كانت جالسة فوق السرير كما هى جالسة الآن وفجأة دق جرس التليفون فرفعت السماعه وجاءها صوت فريد . كان يتكلم بسرعة على غير عادته ، قال لها : انا اتكلم من البيت ولكن هناك مهمة عاجلة هل يمكن أن تحصلى على شىء من المال ؟ وقالت : معنى الآن عشرة جنيهات . فقال بسرعة : أنا بحاجة الى مائة . قالت متى ؟ . . . قال : اليوم أو غدا على أكثر تقدير .

. أول مرة يطلب فريد منها شيئا ، بل أول مرة يطلب احد منها شيئا . كانت فى ذلك اليوم مريضة بالانفلونزا ، وكانت تحس بصداع شديد ، ولم تكن قادرة على أن تحرك جسمها من تحت الفراش . ولكنها أحست فجأة أن قوتها تعود ، وجلست تحمق فى الجدار وقد خيل اليها أنها قادرة على أن تهدفه لتبحث عن المائة

جنيه ، ونهضت بسرعة وارتدت ملابسها ، لم تكن تعرف من أين ستأتي بالمال ، ولكنها كانت تعرف أنها لابد أن تخرج وتبحث . وبينما هي تتجول فى الشوارع كالتائهة خطرت لها أفكار كثيرة من أول الاستدانة بالربا الى السرقة والقتل ، وأخيرا تذكرت أمها ، فعادت تجري الى البيت .

لم يكن سهلا أن تحصل من أمها على المال ، لكنها حصلت عليه بعد أن روت لها كذبة كبيرة جعلتها تصدق أن حياة ابنتها معلقة بهذه الجنيهات المائة ، وكانت لحظات تاريخية ، تلك اللحظات التى بدأت حين وضعت فؤادة المال فى حقيبتها وأسرعت تجرى الى بيت فريد ، كانت تلهث وتنتفض حين فتح لها الباب ، وأسرعت الى حقيبتها ففتحتها ووضعت الجنيهات المائة فوق المكتب دون أن تنطق بحرف ، ربما من شدة السعادة .

نعم ، كانت سعيدة ، ربما كانت فى أسعد لحظة مرت بحياتها، فقد استطاعت أن تفعل شيئا لفريد . استطاعت أن تفعل شيئا لأحد، شيئا له فائدة ما . ونظر اليها فريد بعينه البنيتين اللامعتين يطل منهما ذلك الشيء الغريب الذى تحبه ولا تعرفه ، وقال : أشكرك يا فؤادة وحوطها بذراعيه وكان يمكن أن يقبل شفيتها ككل مرة يلتقيان فى البيت ، لكنه قبل جبهتها برقة واستدار بسرعة قائلا : يجب أن أذهب الآن .

بكت فؤادة فى تلك الليلة وهى عائدة الى بيتها ، أما كان فى استطاعته أن يبقى معها خمس دقائق أخرى ؟ أكان مشغولا الى ذلك الحد حتى انه لم يقبلها ؟ وما الذى يمكن أن يشغله الى هذه الدرجة ؟ !!

الفصل الثاني

جلست على كرسى قديم فى الصالة ، وجلس صاحب العمارة على الكرسى المقابل لها ، وبينهما كانت المنضدة الكالحة ومن فوقها صينية صغيرة عليها فنجانان من القهوة • كان وجهه كبيرا ممثلنا باللحم ، من تلك الوجوه التى نراها لأول نظرة فنفقد الثقة فى صاحبها ، شئ ما فى حركة الشفتين أو فى حركة العينين ، أو فى شئ آخر لا تعرفه ، يوحى اليها انه يكذب ، أو أنه لا يمكن أن يصدق. ربما هى تلك الذبذبة اللاارادية المستمرة فى عينيه الجاحظتين ، أو الرعشة الخفيفة التى تصيب شفثيه حين تنفرجان لتخرج من بينهما كلماته السريعة المتأكلة • انها لا تدرى تماما •

ولكن أتصدر أحكاما على الناس من ملامحهم ؟ • هى صاحبة العقل الكيمياءى ؟ • أىمكن أن تحكم على الناس بأحاسيسها وانطباعاتها ؟ • لماذا لا تكف عن هذه العادة السخيفة ؟ •

ورأت شفثه العليا الرفيعة تقفز وهو يتكلم فتكشف عن أسنان صفراء كبيرة ، كان يقول : هذه الشقة ايجارها اليوم لا يقل عن ثلاثين جنيها فى الشهر • • ومدت يدها الى فنجان القهوة وهى تقول : اعرف اعرف ، ولكنى لا أملك الا هاتين المائتى جنيه ، وسوف أدفعها لك دون أن آخذ العفش ، فأننى لن أحتاج اليه • • وارتجت

عيناه الجاحظتان من تحت نظارته البيضاء السميكة كعيني سمكة كبيرة تمشى تحت الماء ، ورمق البواب الواقف بجوار الباب نظرة سريعة ثم قال : اذا كنت في غير حاجة الى العفش فاني أخفض القيمة الى أربعمئة جنية .

وابتلعت رشفة من القهوة المرة وقالت : قلت لك ليس معي الا مائتان . وقال البواب بعد أن نظر الى سيده نظرة متواطئة : يمكنها يا سعادة البية أن تدفع المائتين الآن وتقسط الباقي ، وانفرجت الشفتان الرفيعتان عن ابتسامة ضيقة وتذبذبت العينان الجاحظتان وهو يقول : أقبل التقسيط ولكن كم يكون كل قسط ؟ .

لم تكن تعرف فؤادة شيئا عن تلك المساومات ، كانت تريد الشقة ، بل أصبحت الشقة أملها الوحيد في الحياة ، قارب النجاة الوحيد من ذلك الضياع والفراغ ، والخيط الوحيد المتين الذي يقودها الى البحث الكيميائي وربما الى الاكتشاف العظيم . ولكن هذا الوجه الكبير المشبع باللحم من كل زاوية ، وهاتان العينان المقعرتان تنظران اليها في جوع ونهم وكأنها قطعة من اللحم . . . ألا تكفيه مائتان من الجنيهات نظير لاشيء ؟ . وكيف تقسط الباقي ؟ . انها ستشترى الأدوات والأجهزة بالتقسيط ، فمن أين تدفع كل هذا ؟ . ثم انها ستدفع ايجار الشقة كل شهر ، وقد تستأجر شخصا يستقبل الزبائن ويساعد في تنظيف المعمل .

كانت مطرقة تفكر في صمت ، ورفعت عينيها فجأة إليه وضبطت عينيه الزجاجتين يرمقان ساقها بنظرة شرهة فشدت بغير ارادة فستانها ليغطي ركبتها وقالت : لن أستطيع ان أدفع شيئا بالتقسيط . . . وأمسكت حقيبتها ونهضت لتخرج ، ونهض هو الآخر . وكانه محرج وأطرق الى الأرض وتمتم في أسف : أنا لم أخفض المبلغ عن خمسمئة جنية لأي أحد وجاءني أشخاص كثيرون لكنني رفضت تأجير الشقة لمدة طويلة ، انها أجمل شقة في العمارة .

وقالت وهي تتجه الى الباب : انها شقة جميلة ولكنى لا استطيع دفع اكثر من مائتى جنيه . وسارت نحو المصعد ، وأحست بنظراته تلسع ظهرها ، وفتح لها باب المصعد فدخلت ودخل وراءها . . . كان ضخم الجثة عريض الكتفين له بطن عال ، وساقان رفيعتان تنتهيان بحذاء صغير . وقال للبوابة قبل أن يهبط المصعد : اغلق الشقة يا عثمان .

وهبط المصعد بهما ، ورأت عينيه المقعرتين ترشقان صدرها بنظرة فاحصة دقيقة كأنما هو يقيسه أو يزنه . وكتفت ذراعيها حول صدرها وتشاغللت بالنظر فى المرأة . . . وكأنما فوجئت حين رأت وجهها . . . منذ مدة طويلة لم تر وجهها . . . انها لا تذكر انها نظرت فى المرأة فى اليومين السابقين . منذ غياب فريد ، ربما ألفت مرة نظرة خاطفة على شعرها بعد أن مشطته ، لكنها لم تر وجهها ، وبدا لها وجهها أطول مما كان ، وعينيها أكثر اتساعا يشوب بياضها احمرار خفيف ، وأنفها هو أنفها ، وفمها هو فمها بتلك الفرجة اللارادية القبيحة ، وزمت شفتيها وابتلعت لعابا له طعم البن المر حين توقف المصعد فى الدور الأرضى ، وتنبهت الى أن صاحب العمارة كان لا يزال يرمقها من تحت نظارته السميقة البيضاء . وفتحت باب المصعد وأسرعت تخرج من العمارة لكنها سمعت صوته من خلفها يقول : لو سمحت يا آنسة . . . واستدارت إليه فقال : لم أعرف لماذا تريد الشقة . . . للسكن ؟ . . . وقالت فى ضيق : لا ، سأجعلها معملا كيماويا . وانحسرت شفته العليا عن الأسنان الكبيرة الصفراء وقال : هذا شىء عظيم ، وأنت التى ستعملين فيه ؟ . . . قالت : نعم . . . وتذبذبت عيناه لحظة ثم قال : كنت أود أن أعطيك الشقة ولكن . . .

وقاطعته قائلة : أنا أشكرك ولكنى كما قلت لك ليس معى الا المائتان .

وثبتت نظراته لحظة وهو يقول : سأقبل منك المائتين ، تاكدى

اننى لم أكن أقبلها أبدا من أى شخص غيرك . ونظرت اليه فى دهشة
وقالت : معنى هذا انك توافق . وابتسم ابتسامته اللزجة وعيناه
الملاحظتان ترتجفان من تحت زجاج النظارة كعيني ضفدعة تتلصص
تحت ماء عكر وقال : من أجل خاطرك فقط . وقالت وهى تخفى
سرورها : هل يمكن أن أدفع الآن ؟ قال : اذا شئت . . . وفتحت
حقيبتها بسرعة وناولته المائتى جنيهه وقالت : متى أكتب العقد . .
قال : متى تشائين . . قالت : الآن ؟ قال : الآن .

خرجت فؤادة من العمارة ، وسارت فى الشارع ساهمة ،
يسيطر عليها شعور غريب كذلك الذى تحسه فى الاحلام ، كان مزيجا
من عدم التصديق الكامل بالحصول على الشقة وبالخوف الشديد من
فقدانها ، ذلك الخوف الذى ينتاب المرء حين يحصل على شيء ثمين فيظن
أنه سيفقده فى لحظة حصوله عليه .

وخيل اليها أن ما حدث لم يكن الا حلما ، ففتحت حقيبتها ورأت
عقد الايجار مطويا تحت كيس النقود ، وأمسكت الورقة وفتحتها
ووقعت عينها على بعض كلمات ، طرف أول محمد الساعاتى ، وطرف
ثان فؤادة خليل سالم . . وتأكد لها ان الأمر لم يكن الا حقيقة فطوت
عقد الايجار وأعادته الى مكانه فى الحقيبة ، وواصلت سيرها .
شيء ما يجثم فوق قلبها ويجعله ثقيلًا ، ماهذا الذى يثقل قلبها ؟
أما كان يجب أن تكون مسرورة ، ألم تحصل على الشقة ؟ . . ألم تحقق
الأمل ؟ . . ألم تصبح صاحبة معمل كيماوى ؟ . . ألم تجرى بحثها ؟
ألم تسعى الى اكتشافها ؟ . . نعم ، كان يجب أن تكون سعيدة ، ولكن
قلبها ثقيل ، كأنه رطب بحجر .

ولم تشعر برغبة فى العودة الى البيت ، وتركت قدمها تسيران
ولمحت تليفونا من وراء باب زجاجى فدفعت الباب ودخلت ووضعت
يدها فوق السماعة لترفعها لكن صوتا خشنا قال لها : ممنوع استعمال

التليفون ، وخرجت تبحث عن تليفون ، الساعة الواحدة واليوم جمعة ، ربما يكون فريد قد عاد الى البيت ، ولكن قلبها يحس انها لن تجده ، سيأتيها ذلك الجرس الأخرس حادا متصلا لا ينقطع . . خير لها ألا تطلبه في التليفون ، خير لها أن تكف عن السؤال عنه ، لقد هجرها راخنتى فلماذا تثقل قلبها بالأوهام ؟ . .

ورأت تليفونا في كشك سجاثر فتظاهرت بأنها لا تراه وسارت في طريقها رافعة رأسها ولكنها استدارت وعادت لترفع السماعة بأصابع مرتجفة باردة .

نفذ الجرس الى رأسها كمسمار مدبب ، كان يؤلم أذنها لكنها كانت تبقيه وكأنما تستعذب الألم ، كأنما تعالج به ألم آخر أشد وأفدح ، كالذى يكوى جلد بطنه بسيخ محتمى ليتخلص من ألم الكبد أو الطحال . وظلت السماعة الى جوار أذنها ، ملتصقة بها ، حتى سمعت البائع يقول: هناك غيرك يريد التليفون . . فوضعت السماعة وواصلت سيرها مطرقة الرأس .

أين اخنتى ؟ . . لماذا لم يقل لها الحقيقة ؟ . . أكان كل ذلك خداعا ؟ . . أكانت كل أحاسيسها كذبا ؟ . . لماذا لا تكف عن التفكير فيه ؟ . . الى متى تنجول كالتائهة في الشوارع . . ما جدوى هذه الحركة الدائرية العقيمة كدوران عقربي الساعة . . ألا يجب أن تبدأ في شراء أدوات المعمل وأجهزته ؟ . .

ورفعت رأسها فاصطدمت عيناها بظهر كظهر فريد ، وتصلبت واقفة في مكانها كأنما أصيبت بمس كهربى ، لكنها أفاقت بعد لحظة حين رأت وجه الرجل من الجانب . . لم يكن فسريد . . وتراخت عضلاتها كما تتراخي اثر انتهاء الصدمة الكهربائية وشعرت انها لا تستطيع السير ، وإن قدميها لا تقويان على حملها . . كان الى جوارها مقهى صغير تنتشر كراسيه فوق الرصيف فجلست على كرسى

منها ، وراحت تحملق بنصف وعى فيما حولها . . وكانت الأشياء من حولها تبدو مألوفة كأنما رأتها من قبل ، الرجل العجوز الأعرج الذى يوزع أوراق اليانصيب ، والجرسون الأسمر ذو الحظ العميق فى ذقنه اثر جرح قديم ، والمنضدة الرخامية المستطيلة التى تضع يدها عليها ، والرجل القصير السمين الذى يجلس الى المنضدة المجاورة يشرب فنجان القهوة ، والخطوط الرفيعة الحمراء التى رسمت على فنجان القهوة ، بل وتلك الرعشة المستمرة فى أصابع الرجل وهو يرفع فنجان القهوة الى فمه . . كل هذا حدث فى مرة سابقة كما يحدث الآن . . انها لم تجلس فى هذه القهوة أبدا . . بل انها لم تأت الى هذا الشارع من قبل ، ولكن هذه الجلسة التى تجلسها ومن حولها تلك الأشياء قد حدثت مرة سابقة لا تدرى أين . .

وتذكرت أنها قرأت مرة شيئا عن تناسخ الأرواح وقالت لنفسها فى سخرية ربما عشت هذه الحياة من قبل فى جسم آخر .
وخطر لها فى هذه اللحظة خاطر غريب ، فقد تصورت انها سترى فريدا مارا أمامها فى الشارع . . لم يكن تصورا فحسب ولكنه كان كاليقين ، بل لقد خيل اليها ان قوة ما خفية هى التى ساقتها الى هذا المقهى بالذات وفى هذا الشارع بالذات وفى هذه الدقيقة بالذات لكى ترى (فريد) .

ولم تكن تؤمن بالأرواح الخفية ، كان عقلها كيميائيا لا يؤمن الا بما يخضع للتحليل الكيمائى ويوضع فى انابيب الاختبار . ولكن هذا الخاطر سيطر عليها بدرجة كبيرة الى حد أنها ارتجفت من الرهبة فقد تصورت انها فى اللحظة التى ترى فيها (فريد) ستسقط على الأرض ويصعقها الايمان . وشدت عضلات وجهها وجسمها متأهبة للصاعقة التى ستجلب بها حين يقع بصرها على فريد سائرا بين الناس ، وظلت عينها تبحتان فى الوجوه المارة ولا ترمش أبدا ، وانفاسها تهبط ولا تصعد ، وقلبها يدق بعنف وكأنه يفرغ آخر جرعاته .

ومرت لحظة ولم تر (فريد) ، وابتلعت ريقها ، كأنما تسترد بعض هدونها ، كأنما تحمد الله على أنه لم يظهر وعلى أنها لم تصعق .
ومرت لحظة أخرى فبدأت تشعر بالقلق لأن النبوءة لم تتحقق ولأنها سوف تسقط مرة أخرى في هوة الانتظار ، لكنها كانت لاتزال تأمل في أن تراه ، وظلت تحمق في وجوه الرجال تفرز بسرعة كل وجه ، وكان بعض الرجال يشترك مع فريد في شيء من الملامح والحركات ، وكانت عيناها تستقران لحظة على الشيء المتشابه وكأنها ترى جزءا حقيقيا من فريد .

ومر وقت طويل قبل أن تتأكد فؤادة من كذب النبوءة الغاشمة وارتمت عضلات رأسها ورقبتها في خيبة أمل ، لكن راحة خفية كانت قد تسربت الى نفسها ، تلك الراحة التي تعقب التحرر من مسئوليات الايمان .



مضت ثلاثة أيام وأصبح المعمل معداً ، كان اليوم ثلاثاء بعد الظهر ، حين سارت فؤادة في شارع قصر النيل في اتجاه المعمل ، تحمل في يدها لفة بها بعض أنابيب اختبار وخرائط رقيقة من (الكاوتش) . كانت على الرصيف المواجه للمعمل فوقفت مع الواقفين عند الاشارة لتجتاز الشارع .

بينما هي واقفة تنتظر اللون الاخضر ، رفعت رأسها الى واجهة العمارة . كانت اللافات تغطي النوافذ والشرفات والأبواب والمساحات الخالية من الجدران ، لافات بأسماء أطباء ومحامين ومحاسبين وخياطين ومدلكين وغيرهم من ذوى المهن الحرة . كانت الأسماء مكتوبة بخط اسود عريض فوق أرضية بيضاء فبدت لها كصفحة الوفيات في جريدة . والتقطت عيناها اسمها فؤادة خليل سسالم مكتوباً بأحرف سوداء في أعلى الصفحة . . وأحست بثقل في قلبها

كأنها تقرأ نعيها . . لكنها كانت تعلم أنها لم تمت ، وانها واقفة عند الاشارة تنتظر اللون الاخضر ، وانها قادرة على تحريك ذراعها . واصطدمت ذراعها وهي تحركها برجل كان يقف الى جوارها مع ثلاثة من الرجال ، وكانوا ينظرون جميعا الى واجهة العمارة ويقرأون اللافتات ، وخيل اليها انهم ينظرون الى اسمها هي بالذات ، فانكمشت داخل معطفها فى خجل وخيل اليها ان حروف اسمها لم تعد خطوطا من الطلاء الاسود ، وانما أشياء مجسدة كالأعضاء ، كأعضاء جسمها لم تدرك كيف تصورت هذا ، لكنها أحست وعيون الرجال تتأمل اسمها المعروض كأنما يتأملون جسمها العارى ممدودا فوق النافذة ، وفتحت الاشارة فاندست بين السائرين تتخفى بينهم . وتذكرت حادثة وقعت لها وهي فى السنة الاولى بالمدرسة الابتدائية . . كان مدرس الدين بأنفه المقوس الغليظ كمنقار البطة واقفا فى الفصل يشرح للبنات الصغيرات ما بين السادسة والثامنة من العمر تعاليم الدين التى تنص على احتشام الاناث . . وقال فى ذلك اليوم ان الانثى لابد ان تغطى جسمها لأنه عورة ، ولا تتكلم فى حضرة الرجال الغرباء لأن صوتها عورة ، وقال أيضا ان اسمها عورة ويجب ألا يذكر علنا أمام الرجال الغرباء . وضرب مثلا بنفسه قائلا : حين يعن لى وللضرورة القصوى أن أذكر زوجتى فى حضرة الرجال فانى لا أنطق اسمها الحقيقى وانما أطلق عليها اسم الجماعة .

كانت فؤادة الطفلة الصغيرة جالسة تسمع ، ولم تكن تفهم شيئا مما يقال . لكنها كانت تقرأ ملامح المدرس وهو يتكلم ، وحين نطق كلمة عورة لم تفهم معناها ، لكنها أحست من التعبير الذى ارتسم على ملامحه انها تعنى شيئا قبيحا ومزريا للغاية فانكمشت فى الدرج حسرة على نفسها المؤنثة . وكان يمكن أن يمر اليوم بسلام كأي يوم آخر لولا أن مدرس الدين عن له فى تلك اللحظة أن يسألها عن معنى

ما قاله ٠٠ فوقفت تنتفض من الذعر ، وبينما هي واقفة لم تدر كيف
فلت البول من بين ساقها بغير ارادة ، واتجهت عيون البنات جميعا
الى ساقها المبتلتين ، وأرادت أن تبكى لكنها لم تستطع من شدة
الحزي .

أصبحت فؤادة فى معملها الكيماوى ٠٠ كل شىء من حولها يبدو
جديدا مغسولا ينتظرها ٠٠ الأنايب ، المخاير ، الأجهزة ، الأحواض
وكل شىء ٠٠ واقتربت من الميكروسكوب الموضوع على منضدة خاصة
لها ضوء خاص ، وحركت مساميره ، وهى تنظر من خلال العدسة ،
ورأت دائرة الضوء نظيفة خالية وقالت لنفسها : ربما أجد ضالتي
يوما فى هذه الدائرة .

وشعرت برغبة فى العمل ، فلبست القوطة البيضاء وجهزت
الأنايب ، وأشعلت موقد الغاز ، كان ضوء اللهب زاهيا فأمسكت
أنبوبة اختبار بماسكها المعدنى الخاص وغسلتها غسلا دقيقا خشية
أن تظل بها ذرة تراب وقربتها من لسان اللهب حتى جفت تماما ثم
شدت عضلاتها وتأهبت لاجراء البحث .

لكنها ظلت ممسكة بالأنبوبة الفارغة تحملق فيها وكأنها نسيت
موضوع البحث وأحست بعرق بارد يندى جبينها وقد نوجئت
بسؤال بدهى كانت تعرف جوابه دائما ، لكنها حينما ووجهت
بالسؤال وبدأت تفكر هرب منها الجواب ، وكلما كانت تفكر وتفكر
كان يهرب منها أكثر وأكثر . وتذكرت يوما قرأت لها زميلة الفنجان
لتدلها على بعض أحداث المستقبل ٠٠ وبينما كانت الزميلة تقرأ
الفنجان سألتها فجأة : ما اسم أمك ؟ ٠٠

لم تدر فؤادة كيف فاجأها السؤال حتى انها نسيت اسم أمها ،
وألمت الزميلة فى معرفة الاسم ، وكلما كانت تلح بالسؤال كان

الاسم يهرب من ذاكرة فؤادة واضطرت الزميلة في النهاية أن تواصل قراءة الفئجان بغير اسم الأم ، ولكن فؤادة تذكرت الاسم في اللحظة نفسها التي كفت فيها الزميلة عن السؤال .

ظلت فؤادة تحملق في الأنبوبة الفارغة ثم وضعتها في حامل الأنايب وأخذت تروح وتجيء في الحجرة سطرقة الرأس . كل شيء يمكن أن يختفى الا هذا . كل شيء يمكن أن يهرب منها الا هذا ! انها لن تحتل اختفاءه هو الآخر ، لن تحتل هروبه . فهو الشيء الوحيد الباقي لها ، هو السبب الوحيد الذي يبقيها على قيد الحياة .

وتوقفت عند النافذة وفتحت الزجاج ، ولفح الهواء البارد وجهها فأحسبت بشيء من الانتعاش وقالت لنفسها : انه الارهاق ، يجب ألا أفكر في البحث وأنا مرهقة . ونظرت من النافذة . كانت اللافته الكبيرة معلقة في حديد الشرفة ، وراة الشارع بعيدا . والناس يسرون في طريقهم دون أن يرفعوا رؤوسهم الى أعلى ، غير عابئين بمعملها الكيماوى . وخيل اليها أن أحدا لن يفتن الى وجود معملها ولن يطرق بابها زبون واحد . ومصصت شفيتها في أسى ، وهمت بأن تغلق النافذة معين لمحت امرأة تقف على الرصيف وتلوى رأسها الى فوق وتنظر ناحية نافذتها . ودب الحماس في جسمها فجأة . لا بد أنها مصابة بداء النقرس وقد جاءت لتحليل بولها . وأسرعت الى الحجرة الخارجية التي كتب على بابها حجرة الانتظار وعدلت بعض الكراسى المعوجة ، ونظرت الى نفسها في المرآة الطويلة بجوار الباب . وراة الفوطة البيضاء تتدلى الى ما فوق ركبتيها كحلاقي الشعر وغضت الطرف عن فمها المنفرج ونظرت في عينيها وابتسمت وهي تهمس لنفسها : فؤادة خليل سالم صاحبة معمل للتحليل الكيماوية . نعم انها هي .

وسمعت أزيز المصعد يتوقف ، وسمعت بابه يفتح ويفلق ، وطرق كعب الحذاء الثقيل العالى على أرض الممر البلاط . وانتظرت

فؤادة وراء الباب لتسمع صوت الجرس لكنها لم تسمع شيئاً ،
ففتحت شراعة الباب بهدوء شديد ، ورأت ظهر السيدة وهي تدخل
من باب الشقة المجاورة لها ، وقرأت الرقعة النحاسية الصغيرة فوق
الباب : معهد شلبي الرياضى للتندليك والتخسيس .

وأغلقت الشراعة ، وعادت الى الحجرة الداخلية التى كتب على
بابها : حجرة التحليل والأبحاث ، وأشاحت بوجهها عن الأنبوبة
الفارغة ، وأخذت تروح وتجىء فى الحجرة ثم نظرت فى الساعة . .
كانت اثامنة ، وتذكرت أن اليوم هو الثلاثاء ، فخلعت الفوطة
البيضاء بسرعة وألقتها على أحد الكراسى ثم خرجت الى الشارع
مسرعة .

الثلاثاء الماضى لم يأت ، ربما لسبب قاهر ، وها هو الثلاثاء
آخر ، أترأه يأتى فى الموعد ؟ . . أيمكن أن تذهب الى المطعم فتجده جالسا
الى المائدة ؟ ظهره ناحيتها ووجهه ناحية النيل . . ان قلبها يخفق
ولكن تهتز داخله تلك الجلطة التى تجمدت وتقلصت وثقلت ككرة
الرصاص . . انها لن تجده فلماذا تذهب الى المطعم ؟ . . وحاولت أن
تغير اتجاهها وتعود الى البيت لكنها لم تستطع ، كانت قدماها تندفعان
بغير وعى فى اتجاه المطعم كحصان جامح شد اللجام من يد صاحبه
وانطلق يجرى وحده .

وصفع عينيها ظهر المائدة العارى بغير مفرش ، الهواء يضربه من
كل جانب كصخرة عاتية هرمة فى قلب بحر هائج . ووقفت لحظة
ساهمة ثم خرجت من المطعم مطرقة ، وسارت بخطوات بطيئة وثقيلة
حتى وصلت بيتها .

كانت أمها فى ركن من الصالة تصلي، ظهرها للباب ووجهها
للحائط ، ووقفت لحظة تتأملها . كان ظهرها المقوس ينحني الى الأمام

فيرتفع طرف جلبابها عن بطن ساقها وتركع على الأرض بضع لحظات
ثم تنهض واقفة لتنعني مرة أخرى الى الأمام ويرتفع جلبابها كاشفا
عن بطن ساقها • ورأت فؤادة عروقا كبيرة زرقاء نافرة في بطن
ساقها كالديدان الطويلة المتعرجة وقالت لنفسها : مرض خطير في
القلب أو الشرايين • وركعت أمها على الأرض ثم لوت رأسها ناحية
اليمين وهمست ببضع كلمات ثم ناحية اليسار وهمست بالكلمات
نفسها ونهضت مستندة بيدها على الكنبه ووضعت قدميها في الشبشب
واستدارت لترى فؤادة وراءها • وقالت وهي تبصق في فتحة جلبابها
عند العنق : بسم الله الرحمن الرحيم ! متى دخلت ؟ • وقالت
فؤادة وهي تجلس على الكنبه تتنهد في اعياء : الآن • وجلست الأم
على الكنبه الى جوارها وقالت وهي تتأملها : يبدو انك متعبة •

كانت على وشك أن تقول متعبة جدا ولكنها نظرت في وجه أمها
ورأت عينيها الواسعتين مشربتين باصفرار واضح لم تره من قبل
فقالت : اشتغلت كثيرا فقط ، هل تشعرين بتعب يا ماما ؟ • وقالت
الأم في دهشة : أنا • أي تعب ؟ وردت قائلة : في القلب مثلا • •
وقالت الأم : لماذا ؟ • وقالت فؤادة : لاحظت عروقا نافرة في
رجليك وأنت تصلين وقالت الأم : وما دخل القلب بالرجلين ؟
قالت : الدم يمشى من القلب الى الرجلين •

وشوحت الأم بيديها في لامبالاة : يمشي كما يمشي • أنا لا أشعر
بتعب وقالت فؤادة : لا نشعر أحيانا بالتعب لكن المرض يكون كامنا
في أجسامنا ، ومن المفيد أن نبحث من الآن • وقالت الأم وهي تربع
رجليها فوق الكنبه : أنا أكره الأطباء كالعمى •

وقالت فؤادة : لن تذهبي الى طبيب • سأتولى أنا البحث • •
وقالت الأم في دهشة : أي بحث ؟ • وردت فؤادة : سأخذ عينة من
بولك وأحللها في معمل • وابتسمت الأم ابتسامة صغيرة وقالت
بصوت عال : آه فهمت ! • تريدين اجراء تجاربك على •

ونظرت اليها فؤادة لحظة ثم قالت : أى تجاوب .. انى اعرض عليك خدمة بغير مقابل . وقالت الأم : أشكرك جدا ، أنا فى تمام الصحة ولا أريد أن أوهم نفسى بمرض . وقالت فؤادة فى ضيق : لن يكون هناك أى وهم يا ماما ولن يكون عندك مرض . وقالت الأم : اذن ما فائدة التحليل .. وقالت فؤادة : لنتأكد من عدم وجود المرض هذا شىء ، والشىء الآخر أن التحليل .. وسكتت لحظة ثم قالت بصوت منخفض : التحليل فى حد ذاته فن يلذ لي أن امارسه .

وقالت الأم وهى تقلب شفتها السفلى فى امتعاض : وما هو الفن أو اللذة فى تحليل البول .. ! وردت فؤادة وكأنها تكلم نفسها : انه عمل يعتمد على الحواس ، كالفن سواء بسواء . وقالت الأم : أى حواس ؟ .. وقالت فؤادة : الشم ، اللمس ، النظر ، التذوق .. وصاحت الأم قائلة : تذوق .. ونظرت الى ابنتها لحظة ثم قالت : يخيل الى أنك لا تعرفين شيئا عن هذه التحليلات .

ونظرت فؤادة الى أمها ، ورأت فى عينيها نظرة غريبة ، تشبه النظرة التى رأتها فى عينيها فى صورة الزفاف ، نظرة قاسية ، متشككة ، فاقدة الثقة فيمن أمامها فقدانا مريرا ، وأحست بسخونة ترتفع فى رأسها ووجدت نفسها تقول بغير وعى : أنا أعرف لماذا ترفضين التحليل . أنت ترفضين لأنك لا تثقين فى تحليلي . وارتفع صوتها بغير ارادة وصاحت : أنت لا تثقين فى اننى يمكن أن أعمل شيئا .. هذه هى نظرتك لى دائما ، وهذه كانت نظرتك دائما لأبى .

وفتحت أمها فمها فى دهشة ثم قالت : ماذا تقولين ؟ . وردت بصوت أكثر ارتفاعا : نعم ، أنت لا تثقين فى ... هذه هى الحقيقة التى كنت تخفيها دائما عنى .

ونظرت اليها أمها فى دهشة شديدة وقالت بصوت واهن : ولماذا لا أتق فيك ؟ ..

وصاحت فؤادة : لأننى ابنتك .. فالناس دائما لا ترى الأشياء
الثمينة التى تمتلكها لمجرد أنها تمتلكها .

وأطرقت فؤادة رأسها الى الأرض وأمسكته بيديها كأنها تشعر
بصداع شديد، وراحت الأم تتأملها فى صمت واشفاق ثم قالت بصوت
حنون : من قال لك اننى لا أثق فيك يا ابنتى .. أنت لا تعرفين كيف
أحسست بك حين رأيتك لأول مرة بعد ولادتك . كنت نائمة الى
جوارى كالملاك الصغير تتنفسين بهدوء وتنظرين حولك فى دهشة
بعينيك الصغيرتين اللامعتين . وحملتك بين ذراعى ورفعتك الى فوق
لبراك أبوك وقلت له : انظر اليها يا خليل . والقى عليك أبوك نظرة
خاطفة وهو يقول فى أسى : انها بنت . وقلت له وأنا أقربك من
وجهه : ستكون امرأة عظيمة يا خليل ، انظر اليها ، انظر فى عينيها ،
قبلها يا خليل ! قبلها ! ..! وقربتك منه حتى كاد وجهك يلامس
وجهه ، لكنه لم يقبلك وأشاح بوجهه بعيدا عنا وتركنا وخرج ..
ومسحت الأم بكمها دمة صغيرة بللت جفنيها وقالت : كرهته فى
تلك الليلة أكثر من أى ليلة أخرى ، وبقيت طول الليل صاحبة أنظر
الى وجهك الصغير وأنت نائمة ، وكلما كنت أقرب أصبعى من يدك
تلتف أصابعك الصغيرة الرقيقة حول اصبعى وتمسكه بقوة ولا
تتركه . وظلمت أبكى حتى طلع النهار . ولا أدرى يا ابنتى ما المرض
الذى أصابنى فقد ارتفعت حرارتى فجأة وفقدت الوعي أياما ..
وحيثما أفقت واسترددت صحتى عرفت اننى نقلت الى مستشفى حيث
انزعوا من جسمى الرحم فأصبحت عقيما .

وأخرجت منديلها من جيب جلبابها لتمسح الدموع التى تسربت
الى أنفها وقالت : كنت أنت الشيء الوحيد لى فى الحياة ، وكنت أدخل
عليك حجرتك وأنت ساهرة تستذكرين وأقول لك .. وغلبتها الدموع
فوضعت المنديل فوق عينيها لحظة ثم رفعته عن عينيها محتقنتين بالدم
وقالت : هل نسيت يا فؤادة ؟ ..

كانت فؤادة تقاوم الماء حاداً في نصف رأسها ، وكانت صامتة
شاردة كأنها نصف نائمة وقالت بصوت ضعيف : لم أنس يا ماما .

وسألت الأم في رقة : ماذا كنت أقول لك يا فؤادة ؟ . وقالت
فؤادة في شرود : كنت تقولين انك واثقة من اننى سأنجح وأسبق كل
زملائى . .

وانفرجت شففتنا الأم الذابلتان عن ابتسامة واهنة وقالت :
أرايت ؟ . كنت واثقة دائما منك . . وقالت فؤادة : كنت تتصورين
اننى أحسن من كل البنات .

وقالت الأم فى شىء من الحماس : لم أكن أتصور فقط . كنت
متأكدة .

ونظرت فؤادة فى عيني أمها وقالت : ولماذا كنت متأكدة ؟ .
وقالت الأم بسرعة : هكذا . . بغير سبب . . وحاولت فؤادة أن
تثبت عينيها فى عيني أمها لترى نظرتها ، وتفهمها ، وتعرف سر ذلك
التأكد الذى كان يلازمها لكنها لم تر شيئاً . وشعرت بشىء من
الضيق تحول بعد لحظة قصيرة الى غضب خفيف ، وقالت لامها فجأة :
هذا التأكد أفسد حياتى . .

وارتفع الجفنان الخاليان من الرموش عن مساحة أكبر من بياض
العينين الاصفري ذى الشعيرات الدموية الحمراء وقالت الأم فى دهشة
شديدة : ماذا ؟ . .

وقالت فؤادة بغير ارادة وكانما يلقتها شخص من الماضى البعيد :
هذا التأكد كان يطاردنى كالشبح ، كان يثقل قلبى . ولم أكن أنجح
فى الامتحانات الا . . . وسكنت لحظة وابتلعت ريقها بصوت مسموع
ثم واصلت كلامها : نعم ، لم أكن أنجح الا من أجلك أنت . . وكان

هذا يعذبني .. نعم كان يعذبني لأنني كنت أحب العلوم وكان يمكن
أن أنجح وحدي .. وأمسكت رأسها بين يديها وضغطت عليه بقوة .
وسكنت الأم لحظة واجمة ثم قالت في أسي : أنت مرهقة يا فؤادة
الليلة .. ماذا حدث في الايام الاخيرة ؟ .. أنت لست في حالتك
الطبيعية .

ظلت فؤادة ، مطرقة صامتة ، تضغط بكلتا يديها على رأسها
وكانما تخشى عليه أن ينكسر ، كان هناك ألم حاد يشق رأسها
نصفين ، وفي مكان ما من مؤخرة رأسها كانت هناك نقطة تكشف
عن نفسها ، لم تكن تعرف تماما ما هي ، ولكن خيل اليها انها بدأت
تكتشف السبب الحقيقي للحزن الغامض الذي كان ينتابها أحيانا حين
تمر بها لحظة سعيدة .

لم يكن هذا السبب سوى أمها ، كانت تحب أمها أكثر من أي
شيء آخر ، أكثر من فريد ، وأكثر من الكيمياء ، وأكثر من الاكتشاف
وأكثر من نفسها . ولم تكن لتتحرر من هذا الحب رغم انها كانت
تريد أن تتحرر . كأنما وقعت في شرك أبدي ، التفت أسلاكه وخيوطه
حول قدميها ويديها ولم تستطع منه فككا طوال حياتها .

وتحرك اصبعها الصغير بغير ازادة وزحف فوق شفرتها العليا
ثم دخل في فمها ، وأخذت تعض طرف اصبعها كطفل ظهرت أسنانه
ولا يزال يمص ثدي أمه . وانقضت فترة طويلة وهي جالسة على
الكنبة في الصالة ، رأسها بين يديها وطرف اصبعها الصغير بين
أسنانه ، وخيل اليها أن أمها تركت الصالة ، ولم تعرف أين ذهبت
لكنها عادت بعد قليل وفي يدها زجاجة صغيرة مليئة بسائل أصفر
ومدت يدها النحيلّة المعروقة الى ابنتها ممسكة بالزجاجة . ورفعت
فؤادة عينيها اليها فسقطت الدمعة الحبيسة من بينهما في حجرها .

* * *

أحست فؤادة بلذة كبيرة وهي تغسل الانابيب وتعد زجاجات القلويات والاحماض ، وتضبط أجهزة التحليل الكيميائي وقراءة الالوان ، واشعلت الموقد وسكبت قليلا من بول أمها في أنبوبة الاختبار وأمسكت الانبوبة بماسكها المعدني وقربتها من طرف اللهب . وبينما هي في هذا الوضع أدركت لماذا ألحت على أمها لتأخذ منها عينة . كانت تريد أن تستخدم أدوات المعمل الجديدة . كانت العينة خالية من الزلال ، فلم تجمد الحرارة منها شيئا واطفأت الموقد ، وسكبت قطرة صغيرة من البول البارد فوق شريحة زجاجية وضعتها تحت الميكروسكوب . ونظرت من خلال عدسته فرأت تلك الدائرة الكبيرة تتحرك داخلها دوائر صغيرة مختلفة الاحجام والاشكال . وحركت المرآة لتضبط الضوء ولفتت المسمار الجانبي الخاص بالعدسة المكبرة فالتسعت الدائرة الكبيرة وزادت عن المدار الذي تدور فيه عينها ، وكبرت الخلايا الدائرية الصغيرة المهتزة وبدت كحبات من العنب تطفو فوق ماء . وركزت عينها على احدى الخلايا ، كان لها شكل البويضة ، بل انها كانت بويضة فعلا . كانت تهتز ككائن حي وتتذبذب داخلها نويتان قائمتان كالعينين . وأمعنت النظر فيهما ، وخيل اليها أنهما تنظران اليها نظرة أليفة كنظرة أمها . وتذكرت ان هذه البويضة هي بويضة أمها ، وانها هي نفسها كانت هذه البويضة منذ ثلاثين سنة ، لكن أمها لم تضعها في زجاجة وتغلق عليها بسدادة ، كانت تتشبث بلحمها كما تتشبث القملة بجلدة الرأس وكانت تأكل خلاياها وتمص دمها .

لم تدر فؤادة كيف استرسلت فى أفكارها ، وكيف تصورت
بكثير من الاندهاش وعدم التصديق منظر أمها وهى مستلقية فوق
السريـر والى جوارها أبوها . لم تكن تخيلت من قبل أن أمها مارست
تلك الاعمال التى تمارسها النساء قبل انجاب الاطفال . لكنها كانت
على يقين من ان أمها قد مارستها بدليل وجودها فى الحياة . وحاولت
أن تتصور شكل أمها فى مثل هذا الموقف ، وخيل اليها انها كانت
تظل بتلك الصورة التى عرفتـها بها ، الطرحة البيضاء تلتف حول
رأسها ، والجلباب الطويل فوق جسمها ، والجورب الاسود الطويل
فى قدميها ، والشبشب الصوفى أيضا . نعم ، لقد تصورتها بكل
تلك الاشياء راقدة فوق السريـر بين ذراعى أبيها مطبقة شفـتيها فى
صرامة وفوق جبينها العريض تكشيرة جادة ، تؤدى واجبها الزوجى
بالحركات الوقورة البطيئة نفسها التى تؤدى بها الصلاة .

وسمعت جرس الباب يرن . كانت قد سمعته منذ رأت
البويضة لكنها ظننت انه جرس الشقة المجاورة ، أو جرس عجلة فى
الشارع . لكن الرنين تكرر واستمر فتركت الميكروسكوب وذهبت
لتفتح الباب .

كانت الخلايا الدائرية لا تزال تهتز أمام عينيها حين وقع
بصرها على العينين الجاحظتين تهتز داخلهما نويتان بارزتان
سوداوان ، وخيل اليها انها لا تزال تنظر فى الميكروسكوب فدعكت
عينيها بيدها وهى تقول : تفضل يا أستاذ ساعاتى .

سار وراءها بجسمه الضخم الى حجرة الانتظار فى خطوات
محرجة وكأنه لا يعرف سببا وجيها لمجيئه . وقال وهو يتلفت حوله
الى الكراسى المعدنية الجديدة : مبروك . الف مبروك . لقد أصبح
معملا جميلا جدا . وجلس على أحد الكراسى وهو يقول : فكرت ان
أمر عليك قبل اليوم أكثر من مرة لأهنتك على المعمل الجديد لكننى

خشيت أن .. وسكت لحظة وتذبذبت عيناه الملاحظتان من تحت
النظارة السميقة ثم قال : لكنى خشيت أن ازعجك .

وقالت فى هدوء : أشكرك .

ورفع عينيه وقرأ الرقعة النحاسية فقال فى دهشة : حجرة
الابحاث ! ونهض وادخل رأسه من باب الحجرة فرأى الاجهزة
والادوات والانابيب والاحواض الجديدة فقال فى سرور واعجاب :
هذا رائع ! رائع ! لقد أصبح معملا كيماويا بمعنى الكلمة .

ونظرت حولها فى شىء من الدهشة ، لم تكن أحست بعد
انها تمتلك المعمل ، أو انه أصبح معملا كيماويا بمعنى الكلمة .
كان يخيل اليها انه ليس كاملا وان أشياء كثيرة تنقصه ، فقالت
بدهشة حقيقية : حقا .. هل ترى انه معمل كيماوى ؟ ..

ونظر اليها مندهشا وقال : وانت .. الا ترين ذلك ؟

وقالت فى شرود وهى تتأمل معملها بعين جديدة : نحن لا نرى
دائما الأشياء التى نمتلكها .

وابتسم ، فقفزت شفته العليا كاشفة عن اسنانه الكبيرة
الصفراء وقال : هذا صحيح خاصة فى حالة الزوجات والأزواج .
وضحك ضحكة قصيرة ثم عاد وجلس على كرسيه . وظلت واقفة
فقال لها : يبدو انك مشغولة ، هل انا اعطلك ؟ .. وجلست على
كرسى بجوار الباب وهى تقول : كنت أجرى بعض الأبحاث .

وابتسمت بغير سبب ، ولعلها تذكرت شكل بويضة أمها ،
والتهمت نظراته الحدباء وجهها وقال : سأقول لك شيئا . هل
تعرفين انك تشبهين ابنتى .. الابتسامة نفسها ، العينان ، القوام ،
ككل شىء .

وأحست فؤادة بوقع نظراته فوق جسمها فصمتت مطرقة ،
وهمست لنفسها : انه يريد أن يثرثر فحسب . وقال : حين رأيتك
لأول مرة أحسست بهذا الشبه الغريب ، وخيل لي أنك قريبة مني
•• وربما هذا هو السبب الذي جعلني أصمم بيني وبين نفسي على
أن أعطيك الشقة .

نعم ، انه يريد أن يثرثر ، وها هو يذكر الشقة ، ما الذي
أتى به في هذا الوقت ؟ لقد أفسد عليها لذة تحليل بول امها .

واكمل كلامه قائلا : فكرت في الايام الماضية ان آتى واساعدك
في تجهيز المعمل ، لكنى خشيت ان تظنى بى سوءا . النساء عندنا
يُسْمَخْنَ. الظن بأى رجل يبدي رغبته في المساعدة ، اليس كذلك ؟ .

ولم ترد ، كانت قد شردت فجأة في شيء آخر . تذكرت حادثة
صغيرة وقعت لها وهي طفلة . كانت تلعب مع الاطفال في الشارع ،
وكان هناك الرجل العجوز الأبله الذي يتجول في الشوارع بغير
هدف ويجرى الأطفال خلفه يهملون : العبيط أهه ! وكانت تجرى
خلفه مع الاطفال وتهلل معهم . وفي ذلك اليوم جرت خلفه أكثر من
اللازم فابتعدت عن الاطفال واقتربت منه . واستدار اليها الرجل
العجوز ونظر اليها نظرة مخيفة فارتعدت وخيل اليها انه سيجرى
خلفها ويمسكها فاطلقت ساقها للريح ، وكفت من يومها عن الجرى
خلفه مع الاطفال ، وكانت تختبئ بسرعة حين تراه ، وقد خيل اليها
انه يخصها دون الاطفال بتلك النظرة المخيفة المرعبة .

لم تدر فؤادة لم تذكرت تلك الحادثة البعيدة ، لكن عيني
الرجل العجوز الأبله كانتا جاحظتين كهاتين العينين . وتلفتت
حولها في المعمل ، وكأنما اكتشفت فجأة انها وحدها مع الساعاتي
في الشقة ، فشعرت بخوف غامض ونهضت وهي تقول : لا بد ان

أذهب الآن فقد تذكرت شيئاً هاماً • ونهض الساعاتى قائلاً :
متأسف لاننى عطلتك • هل تودين ان أوصلك بعربتى ؟ •• وقالت
وهى تسرع وتفتح الباب: لا •• اشكرك فالمكان ليس بعيداً • وخرج
من الباب فأغلقت الشقة بالمفتاح وأسرعت أمامه لتهبط السلم ،
فقال لها مندهشاً : الا تنتظرين المصعد ؟ •• وقالت وهى تهبط
السلم مسرعة : افضل الهبوط على قدمى •



سارت فى الشارع تتطلع الى نوافذ المحلات ، وكان الليل قد
بدأ يهبط بثقله وكثافته على الارض ، واضيئت أنوار الشوارع
والمحلات • لم تشعر برغبة فى العودة الى البيت ، فسارت تحملق
فى الوجوه التى تمر بها ، وكانت قد ادمنت تلك العادة الغريبة ،
عادة مقارنة الرجال بفريد ، فى ملامحهم •• فى حركاتهم •• فى
أحجامهم ، وأدمنت شيئاً أغرب من هذا ، وهو خلق تنبؤات
مبتكرة والانسياق وراء احتمال تحققها • كانت تقول لنفسها مثلاً
وهى سائرة فى الشارع : ستمر بى ثلاث عربات ملاكى يتبعونها
تاكسى ، وسأنظر داخل التاكسى فأرى فريداً جالساً • وكانت تبدأ
فى عد العربات التى تمر بها ولا تتحقق النبوءة فتعوض شفتها
السفلى وتقول : ومن قال انها يمكن أن تتحقق ؟ •• انها ليست
الا وهما • وتواصل سيرها ، وبعد قليل تخطر لها نبوءة أخرى
بشكل آخر •

ووصلت الى نهاية شارع قصر النيل فوجدت جمعا من الناس
يلتفون حول عربة ، وسمعت الأصوات تقول : رجل مات • ووجدت
نفسها تندفع بين الناس وتشق الزحام وهى تلهث وترتجف حتى
وصلت الى الرجل الممدود فوق الارض ، ونظرت فى وجهه ولم يكن
فريداً ، فمادت تخرج من بين الزحام بخطى بطيئة ثقيلة •

وتركت شارع قصر النيل وسارت في اتجاه شارع سليمان .
كان الشارع مزدحما بالناس لكنها لم تر أحدا . كانت تسير شاردة ،
تدرك الاجسام من حولها بحدودها الخارجية التي تفصلها عن كتلة
الدنيا الهلامية الضخمة ، فتعرف بغير ارادة أن ذلك الجسم يشغل
ذلك الحيز من الشارع وعليها ان تتفادى الاصطدام به . وهكذا
سارت دون أن تصطم بشخص أو جدار .

وخيل اليها ان حاجزا ما يسد الطريق ، ورفعت رأسها فرأت
طابورا طويلا من الناس يقف في عرض الشارع ، فوقفت هي
الأخرى .

كان الطابور يتناقص شيئا فشيئا ، حتى وجدت نفسها أمام
شباك التذاكر ، فاشترت تذكرة واتجهت مع الناس الى الباب
الواسع . كانت الصالة مظلمة ، وسقط نور الكشاف الصغير على
ظهر تذكرتها وصعدت السلم وراء كرة الضوء حتى جلست في
كرسيها .

كان الفيلم قد بدأ منذ قليل ، ورأت على الشاشة رجلا وامرأة
يتعانقان فوق سرير ، وتحركت الكاميرا مبتعدة عنهما لتظهر قدم
رجل تطل من تحت السرير ثم عادت الى الرجل والمرأة وكانا لا يزالان
ملتحمين في قبلة طويلة . واحسست بذبابة تمشى على ساقها فهشتها
بيدها وهي تحملق في الشاشة .

وانتهت القبلة وارتدى الرجل حلته وخرج من الباب ،
وقالت المرأة شيئا فخرج الرجل الآخر من تحت السرير وبدأ العناق
من جديد .

وخيل اليها ان الذبابة تعود ، لم تكن ذبابة صغيرة كالذباب ،
فهى كبيرة في حجم صرصار ، وهى لا تقفز بسرعة الذباب وانما

تزحف ببطء صاعدة فوق ساقها • وكانت حريصة على الا يفوتها
شيء من مناظر الفيلم فظلت شاخصة ببصرها الى الشاشة ومدت
يدها فى الظلام لتقبض على الحشرة قبل ان تصعد فوق ركبته ،
لكن اصابعها تقلصت فوق شيء صلب ، فنظرت فى فزع الى يدها ،
ووجدت انها تقبض على اصبع الرجل الجالس الى جوارها • وظلت
ممسكة باصبعه فى يدها ونظرت اليه فى غضب ، لكنه لم يلتفت
اليها ، وظل ينظر الى الشاشة ، فى استغراق شديد وكأنه لا يراها ،
وكان اصبعه ليست ممسوكة فى يدها ، وقذفت باصبعه فى وجهه
حتى كادت تقلع احدى عينيه لكنه ظل يحملق فى الشاشة كالنائم ،
ونهدت بسرعة من جواره وغادرت السينما •

تمددت فوق سريرها ، وراحت تحملق فى السقف ، فى تلك
الدائرة الصغيرة المشرشرة التى سقط عنها الطلاء الأبيض • وشعرت
ببرودة فشدت الغطاء فوق جسمها وأغمضت عينيها لتنام ، لكنها
لم تنم ، وفكرت ان تمد يدها الى التليفون وتطلب الرقم الحماسى
كما تفعل كل ليلة قبل ان تنام ، لكنها لم تمد يدها وضغطت
برأسها على الوسادة وهى تقول : يجب أن اكف عن هذه العادة •
لكنها لم تكف • كانت تعرف أنه لن يكون هناك سوى الجرس الحاد
الأخرس ، وانه لم يعد صوتا ، أو ذبذبات هواء تصل الى اذنها ،
ولكنه قد تحول الى سيخ مدبب من الحديد ، يؤلم اذنها ، ليس ألما
عاديا ، ولكنه ألم حارق كالنار •

غير انها كانت قد ألفتها ، وكانت فى الموعد المحدد كل ليلة
تطلبه ، وتفتح اذنها للساعة وتدعه يدخل مؤلما خارقا ، كأنما كان
الأم يريحها ، كمريض يكوى جسمه بالنار ليتخلص من نار أخرى
أشد ، أو كمدمن ألف طعم السم وأصبح يطلبه كل يوم •

ولم يكن رنين الجرس يصل اليها خالصا ، كان يختلط بصوت شهيقها وزفيرها ودقات قلبها ، ولم تكن تعرف هذا من ذلك ، فالاصوات كانت تمتزج وتتشابك وتصبح كلها صفيرا حادا متصلا ، كذلك الصغير الطبيعي الذي يدوي في الأذن حين تصمت كل الأشياء .

أجل ، كانت تنتظر الجرس كل ليلة كأنما أصبح حبا جديدا . لم تكن تنسى أنه جرس حاد أخرس ، لكنها كانت تعرف انه ينبعث من تليفون فريد ، ويرن في بيت فريد ، ويرتطم بمكتب فريد الذي كثيرا ما جلسا عليه الى جوار بعضهما البعض ، ويصطدم بالكنبة الكبيرة التي كثيرا ما تمددا فوقها جنبها الى جنب ، ويحرك الهواء الذي تنفساها معا وزفراها معا .

وانقطع الجرس ، وجاءها صوت فريد يهمس في اذنها ، وأحست بذراعه حول خصرها ، وأنفاسه الساخنة على عنقها . ولم تكن نسييت أنه غاب عنها كل تلك الأيام لكنها بدت وكأنما نسييت كل شيء ، ولم تعد تذكر شيئا ، لم تعد تذكر ان لها رأسا أو ذراعين أو ساقين ، وفقدت كل حواسها ولم يبق منها الا شفتان متضخمتان ملتهبتان .

وفتحت عينيها لتتنظر في عينيها ، لكنه لم يكن فريد ، كان رجلا آخر ، له عينان ضيقتان زرقاوان وحاجبان كثيفان ، أول رجل أحبته . كانت طفلة صغيرة لا تذكر كم كان عمرها في ذلك الوقت ، لكنها تذكر انها كانت قد كبرت واصبحت تفتح عينيها كل صباح فتجد فراشها جافا . وكانت تكره البلولة وحمدت الله لانها تخلصت منها . لكن الله لم يخذع بحمدها فسرعان ما أصابها ببلولة من نوع آخر ، أشد خطرا ، فهي ليست بلا لون كالبلولة السابقة ، ما ان

تجف حتى تعود الملاءة بيضاء من جديد ، ولكنها ذات لون أحمر قان ، لا تضيع الا بالغسل الشديد الذى يلهب أصابعها الصغيرة ، وهى لا تضيع تماما بعد الغسل ، وانما تترك أثرا باهتا أصفر .

ولم تكن تعرف سببها الحقيقى ، فهى بلولة عشواء تظهر وتختفى كما يحلو لها ، وظنت ان شبعها ما اغتال جسمها الصغير وهى نائمة ، أو أن مرضا خبيثا ألم بها وحدها من دون البنات . واخفت كارثة جسدها عن عيني أمها . وفكرت أن تذهب وحدها الى طبيب ليشفيها سرا ، لكن أمها ضبطتها مرة وهى تغسل ملاءة السرير أمام الحوض . ودارت بها الارض من شدة الحزى وكورت الملاءة بيديها ورأت عيني أمها تنظران اليها من تحت عتامة لم ترها من قبل ، وامتدت يدها الى الملاءة ففردتها ، ورأت البقعة الحمراء المتعرجة فوق النسيج الابيض راقدة ممددة كصرصار ميت . وحاولت ان تنكر جريمتها الشائنة ، لكن أمها بدت وكأنها مشتركة معها فى الجريمة، انها لم تفزع ، ولم تغضب ، بل انها لم تفاجأ على الاطلاق . كانت وكأنها تتوقع حدوث هذه المصيبة لها . وتستسلم لها استسلاما هادئا .

ولم تطمئن فؤادة الى هذا الهدوء ، بل انه أفزعها حتى ان جسمها ارتعد . انها ليست كارثة اذن ، انها ليست مرضا شادا مؤقتا ، انها شىء عادى ، عادى جدا . وكان فزعها يزداد كلما زاد احساسها بعاديته . كانت تتمنى أن يكون شيئا شادا ، فالأشياء الشادة محتملة لانها شادة وغير دائمة .

واصبح جسمها الصغير يتغير . كانت تحس التغيير يسرى فى جسدها كحبة ناعمة لها ذيل طويل رفيع تلعب به فى صدرها وبطنها ، وتلدغها فى أماكن مختلفة من جسمها . كانت اللدغات

مؤلة ولذيفة ، وعجبت كيف يمكن لاحاسيس جسمها ان تبدو لها
مؤلة ولذيفة فى الوقت نفسه ، لكن جسمها كان وكأنه أكثر ذكاء
منها • كان يبدو مقتنعا بالألم واللذة ، راضيا بهما جنباً الى جنب ،
يحتضنهما معا بغير تعجب او دهشة •

كان جسمها يتغير فجأة وبالتدريج ، وكانت تحس التغيير
ولا تحسه كهواء دافىء يدخل أنفها ، أو كماء فاتر ينسكب عليها
بهدوء فهي تحمل كثافته فوق جسمها لكنها لا تحس حرارته لأنه من
نفس حرارتها •

ودهشت حين رأت صدرها يوماً فى المرأة ، لم يكن ذلك
الصدر الاملس الذى أفته عينها ، ولكنه تقعر الى الامام على شكل
قمعين ينتهيان بزبيبتين سوداوين يصعدان ويهبطان مع كل شهيق
وزفير ، ويهتزان اذا ما اهتزت وكأنما سيسقطان من فوق صدرها
كما يسقط البرتقال من فوق الشجرة لولا تلك الطبقة الشفافة من
الجلد •

وبينما هي تهتز ، احست بشيء آخر يهتز خلفها ، واستدارت
أمام المرأة فاكشفت نهدين آخرين متكورين مشدودين بجلد سميك
الى اسفل ظهرها • ووقفت لحظة تتأمل جسمها ، وخيل اليها انه
جسم فتاة أخرى غيرها ، أو جسم امرأة كبيرة • وشعرت بشيء من
الحزى وهي ترى تلك التعاريج والبروزات تعلن عن نفسها كالفضائح
مع كل شهيق وزفير • لكن كان هناك شيء آخر غير الحزى ، شيء
عميق ودفين ، يسربل نفسه بضباب كثيف ، شيء كالسرور الخفى
أو الزهو الخبيث •

ولماذا تبقى كل هذه الصور القديمة فى ذاكرتها بجوار صورة

الرجل الاول ؟ لماذا تبقى على حين زالت صور اخرى كبيرة وحديثة ؟
• لكنها تعتقد ان هناك تفاعلا كيميائيسا لاشك يحدث فى خلايا
الذاكرة ، يذيب بعض الصور ، ويركز بعض الصور ، ويشوه بعض
الصور ، يبقى منها اجزاء ويبتتر اجزاء • نعم ، يبتتر اجزاء ، فقد بتر
النصف السفلى لجسم اول رجل فى حياتها • لماذا بتره ؟ • انها
لا تعرف • فهى لا تذكر انه كان يمتلك نصفا سفليا ، كان له رأس
كبير ، وعينان زرقاوان ضيقتان ، وكتفان وذراعان طويلتان • كيف
كان يمشى بغير ساقين ، انها لا تذكر ، فهى لم تره أبداً وهو يمشى ،
كان يطل من نافذة غرفته دائما • وكان يمكن للكبار ذوى القامات
الطويلة ان يروا داخل الغرفة وهم سائرون على الارض فى الشارع
لكنها كانت قصيرة ، ولم تكن ترى شيئا الا اذا قفزت •

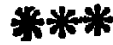
كانت تتعمد ان تقفز الحبل تحت نافذته ، وفى كل قفزة تصوب
نظرة الى داخل الحجرة • لم تكن ترى كل شيء بوضوح ، لأن رأسها
كان يهبط بسرعة ، لكنها استطاعت ان تلمح صورا ملونة معلقة
على الحائط ، وحقيبة كبيرة فوق الدولاب ، ومكتبة فيها كتب • كانت
تحب الصور الملونة أكثر من أى شيء آخر ، وقالت له يوما وهى
تقفز تحت النافذة : اريد صورة ملونة • وقال لها : تعالى وانا أعطيك
صورة • ولم يكن فى استطاعتها ان تذهب بغير اذن من امها • لكن
امها رفضت وقالت لها فى شدة : لقد كبرت على القفز فى الشارع •
ودست نفسها فى سريرها وهى تنتفض غضبا ، وكرهت امها فى
تلك اللحظة كراهية شديدة وحسدت صديقتها سعيدة لأن امها
ماتت وهى تلدها • ولم تبق فى السرير كثيرا ، فقد نهضت ، وسارت
خافية على اطراف اصابعها تمسك حذاءها فى يدها وأسرعت تجرى
الى الشارع •

خفق قلبها الصغير حين طرقت بابه . كانت سعيدة لانها ستحصل على صورة ملونة ، لكنها كانت تعرف أن الصورة وحدها ليست سبب سعادتها . كانت تريد أن ترى غرفته من الداخل . تريد ان ترى شكل دولابه ، وشكل سريره ، وشكل شبشبته ، وكانت تريد أن تمسك كتبه وأوراقه وصوره ، وان تلمس بيدها كل أشياءه .

وفتح الباب ، ودخلت وهي تلهث ، ووقفت بجوار الحائط تنتفض كدجاجة نتف ريشها في البرد ، وقال لها شيئا فاختنق صوتها ولم ترد . واقترب منها ، ورأت عينيه الزرقاوين تقتربان منها . وشعرت بخوف . كان شكل وجهه عن قرب غريبا ، وفي عينيه نظرة صارمة كعيني قط هائج . وشدها اليه بذراعيه الطويلتين فصرخت ، كانت تظن انه سيذبها أو سيخنقها . وصفعها على وجهها قائلا : لا تصرخي ! . لكنها ذعرت أكثر وصرخت أكثر . وبينما هي تحاول ان تفلت من بين ذراعيه سمعت طرقا شديدا على الباب وتركها وفتح الباب . وكادت تسقط على الارض ، فقد رأت أمها بلحمها ودمها واقفة في وسط الغرفة .

وفتحت عينيهما فوجدت نفسها راقدة فوق السرير تنتفض من البرد ، وكان الظلام شديدا ، والنافذة مفتوحة ، وخيل اليها ان شبعا ما يتحرك خلف النافذة فارتعدت . لكنها عرفت انها شجرة الكافور تهتز مع دفعات الهواء . ونهضت وأغلقت النافذة ، ثم عادت الى السرير ودخلت تحت الغطاء الصوفى . وخيل اليها انها تسمع أنفاسا في الحجرة غير أنفاسها ، فأخرجت رأسها من تحت الغطاء ونظرت بحذر في الغرفة . ووقعت عينها على شبح طويل واقف بجوار الدولاب وكادت تصرخ ، لكنها عرفت انه ليس الا الشماعة

ومن فوقها معطفها * واغمضت عينيها لتنام ، ولكنها أحست بحركة وكأنها تأتي من تحت السرير ، ورغبت في أن تمد يدها وتضيء النور ، لكنها خشيت أن تخرج يدها من تحت الغطاء فينقض عليها الشبح القابع تحت السرير وظلت متكورة تحت الغطاء ، مفتوحة العينين ، حتى سرى النوم في جسمها ساخنا كالدم .



كانت أشعة الشمس تدخل من شقوق الشيش حين استيقظت فؤادة . وظلت في الفراش متكورة تحت الغطاء تتمنى بينها وبين نفسها لو انها بقيت في الفراش الى الأبد . لكنها نهضت وجرت جسمها الثقيل وسارت الى المرآة . كان وجهها شاحبا ، اكثر طولاً مما كان ، وعيناها أكثر اتساعا وشفتاها الشاحبتان بينهما تلك الفرجة التي زادت اتساعا ، وبدت تحتها اسنانها أكثر بروزا وأمعنت النظر لحظة في عينيها كأنها تبحث عن شيء ، ثم زمت شفتيها في امتعاض وسارت الى الحمام . غسلت جسمها بالماء الساخن وشعرت بانتعاش فابتسمت لنفسها ابتسامة صغيرة وهي تتطلع الى جسمها في المرآة . كانت طويلة مشوقة وفردت ذراعيها وساقيها وهي تشعر بقوة كامنة في عضلاتها ، قوة لم تستنفد في شيء ، قوة حبيسة لا تعرف كيف تفرج عنها . وارتدت ملابسها وخرجت الى الشارع ، كان الهواء باردا منعشا والشمس ساطعة دافئة وكل شيء يبرق ويهتز في انتعاش . وسارت تحرك ذراعيها بقوة في الهواء ، انها تشعر بقوة . ان في اعماقها طاقة كبيرة . انها تستقبل يوما جديدا بكل حماس . ولكن الى اين هي ذاهبة ؟ الى ذلك القبر الآسن الذي تفوح منه رائحة دورة المياه . الى ذلك المكتب الأجرب الذي تجلس عليه ست ساعات دون أن تفعل شيئا . أتبدد هذه القوة وهذا الحماس في لاشيء ؟

ورأت حصانا يجر عربة • كان يضرب الأرض بأقدامه فى قوة ونشاط • وراحت تتأمل الحصان وكأنها تحسده • انه يستنفد قوته فى جر العربة ، انه يفرج عن طاقته • انه يحرك أقدامه فى سعادة • لو كانت حصانا لكانت الآن مثله ، تجر عربتها ، وتطرقع فوق الأرض بحوافرها منطلقة سعيدة •

وجاء الاتوبيس ٦١٣ ، ووقفت جامدة تنظر اليه بغير حراك كحصان جامح • لا ، انها لن تذهب الى الوزارة • انها لن تبدد ساعات النهار فى لا شىء • لن تبدد عمرها فى التوقيع فى دفتر الحضور والانصراف • من أجل ماذا ؟ • تلك الجنيهات القليلة التى تأخذها كل شهر • أتبيع عمرها من أجل بضعة جنيهات ؟ • • اتدفن ذكائها فى تلك الحجره المغلقة ذات الهواء الفاسد ؟ • نعم ، انه الهواء الفاسد الذى يبدد نشاطها ، انه الهواء الفاسد الذى يعطل افكارها ويقتلها قبل أن تنطلق • كثيرا ما خطرت لها افكار ، وكثيرا ما طرأت لها فكرة البحث ، وكثيرا ما اقتربت من الاكتشاف ، ولكن كل شىء كان يضيع فى تلك الحجره المغلقة الأبواب والنوافذ ذات المكاتب الكالحة الخاوية والرءوس الثلاثة المحنطة •

وجاء الاتوبيس رقم ٦١٣ مرة أخرى ، وكادت تتحرك لتركب لكنها بقيت فى مكانها تنظر اليه بعينين ثابتتين • كل يوم تمر بهذه اللحظة دون أن تنتصر عليها • لو انها استطاعت اليوم فسوف تستطيع كل يوم • انها مرة واحدة تنتصر فيها ، مرة واحدة تقطع فيها تلك العادة القبيحة •

وتلكا الاتوبيس ، لكنها ثبتت قدميها فى الارض ورفعت رأسها الى السماء • سيهضي الاتوبيس بعد لحظة دون أن يحملها معه وينتهى كل شىء ، والسماء مستظل كما هى عالية وزرقاء وصامتة ، ولن يحدث شىء • نعم ، لن يحدث أى شىء •

تنفست بعمق وهي تقول بصوت مسموع : لن يحدث أى شيء.
ووضعت يديها فى جيبى المعطف وسارت تدندن بلحن قديم ، وتنظر
الى ما حولها فى دهشة وفرحة ، كسجين خرج لأول مرة الى الشارع
بعد سنين طويلة قضاها فى السجن . ورات بائع الجرائد فاشتريت
جريدة ومرت بعينها على عناوين الصفحة الاولى ثم مصممت شفيتها .
كانت هى العناوين العريضة الطويلة التى تراها كل يوم . . والوجوه
هى الوجوه ، والأسماء هى الأسماء . ونظرت الى التاريخ فى اعلى
الصفحة وقد خيل اليها أنها تمسك جريدة أمس أو الأسبوع
الماضى أو السنة الماضية . وقلبت الصفحات وهى تبحث بعينها عن
موضوع جديد ، أو وجه جديد ، ووصلت الى الصفحة الأخيرة دون
أن يلفت نظرها شيء ، فطوت الجريدة ووضعتها تحت ابطها . لكنها
تذكرت انها رأت عينين جاحظتين فى صورة من الصور ، وخيل اليها
أنهما تشبهان عيني الساعاتى . وفتحت الجريدة مرة أخرى ،
ولدهشتها الشديدة وقعت عينها على صورة الساعاتى نفسه
وقرأت اسمه تحت الصورة : محمد الساعاتى رئيس الهيئة العليا
للانشاءات والمباني . وتحرك اصبعها بغير وعى وتحسست العينين ،
خيل اليها أنهما بارزتان من الورق ، لكن الورقة كانت ناعمة مكساء
بغير بروز .

وقرأت السطور تحت الصورة . كانت تصف اجتماعا عقده
الساعاتى لعمال الهيئة فى كلام كثير تبين لها انها قرأته من قبل
عدة مرات ، وأنها قرأت اسم الساعاتى عدة مرات ، ورات صورته
عدة مرات . وعجبت فؤادة كيف لم تربط بين هذا كله وبين الساعاتى
صاحب العمارة الذى تعرفه . لكنها لم تتصور ابدا ان يكون ذلك
الساعاتى موضوعا يمكن أن يذكر فى الصحف . وأعادت النظر الى
الصورة والاسم ثم طوت الصحيفة ووضعتها تحت ابطها .

كان البواب جالسا على دكته في الشمس حين وصلت الى العمارة . وانتصب واقفا حين رآها وجرى نحوها وهو يمد يده السوداء تمسك بورقة بيضاء صغيرة وفتحت الورقة وقرأت : سأمر في السادسة مساء اليوم لأمر هام ، الساعاتي . ودخلت المصعد بينما كانت أصابعها تعبت بالورقة وتمزقها بغير وعى الى قطع صغيرة جدا ، وتلقى بها من خلال جدار المصعد الحديدي .

سيمر في السادسة مساء ، ولأمر هام . ماذا يمكن أن يكون الأمر الهام ؟ ماذا يمكن أن يكون هاما في نظرها ؟ موضوع البحث ؟ مكان فريد ؟ سقوط مبنى الوزارة ؟ هذه هي حياتها . لا شيء هاما خارجها . ولكن الساعاتي ، لا يعرف شيئا عن البحث أو فريد أو الوزارة ، فما الذي يمكن أن يكون هاما في زيارته ؟

ودخلت المعمل ، وارتدت القوطة البيضاء ، ورصت زجاجات الأملاح والأحماض فوق المنضدة ، واشعلت الموقد ، وضغطت على الماسك المعدني لتمسك انبوبة الاختبار ، لكنها لم تمسكها ، وتوكلتها في الحامل الخشبي ، منتصبة ، تفتح فوهتها الفارغة للهواء .

وظلت تحمق في الأنبوبة الفارغة لحظات ، ثم جلست وأمسكت رأسها بيديها . من اين تبدأ . انها لا تعرف . لا تعرف . الكيمياء تبخرت من عقلها . الأفكار الكثيرة كانت تتزاحم في رأسها وهي تقرأ ، أو وهي تجرى التجارب في معمل الكلية ، أو وهي سائرة في الشارع أو نائمة ، كل تلك الأفكار اين راحت . كانت في رأسها ! نعم كانت موجودة ، وكانت تحس حركتها وتسمع اصواتها ، وجوار طويل كان يدور بينهما ، وينتهي بنتائج تدهش لها .

كثيرا ما وصلت الى فكرة جديدة ، كادت تجن لها فرحا . نعم
كادت تجن ، وتتلقت حولها فى دهشة ، وترى الناس تسير وكأنها
كائنات من غير نوعها . وهى . . . هى شىء آخر ! . . فى رأسها
شىء ليس فى رأس أحد ، شىء سيبهر العلماء ، شىء يمكن أن يغير
العالم . وتكاد تدهمها عربة أو اتوبيس فتصعد الى الرصيف فى
خوف ، وتمشى بجوار الحائط فى حذر . حياتها يمكن أن تضيق
تحت أى عجلات وتضيق معها الفكرة الجديدة الى الابد . وتسرع
الخطا ، انها تريد أن تبلغ الفكرة الى العالم قبل ان يحدث لها شىء .
وتكاد تجرى ، بل انها تجرى فعلا ، وتلهث ثم تتوقف وتتلقت
حولها . الى أين . . الى أين هى تجرى . . وتكتشف فجأة انها
لا تعرف ! لا تعرف ! . .

واطفأت الموقد ، وخلعت الفوطة البيضاء ، وخرجت الى الشارع
حركة الذراعين والساقين تريحتها ، تخفف من الضغط داخل رأسها .
تنفّس عن تلك الطاقة الحبيسة فى أعماقها . ولمحت تليفونا داخل
محل . فتوقفت فجأة . لماذا لا توضع التليفونات فى أماكن خفية ؟
لماذا يعرضونها هكذا أمام عيون الناس ؟ . . لو لم تر هذا التليفون
لما تذكرت . ومدت يدها ورفعت السماعة ، ووضعت اصبعها فى
الثقب وأدارت القرص الخمس الدورات . ودوى الجرس فى اذنها
حادا عاليا لا ينقطع . ووضعت السماعة بهدوء وسارت بضع خطوات
ثم وقفت فجأة وهى تقول لنفسها : أهو فريد ؟ . . أغياب فريد
هو السبب ؟ . . لماذا أصبح كل شىء متغيرا ؟ . . لماذا أصبح كل
شىء غير محتمل ؟ . . كان فريد موجودا وكانت حياتها هى حياتها .
ولكن فريد كان يجعل كل شىء محتملا . كانت تنظر فى عينيه
البنيتين اللامعتين فتحس ان كل شىء فى الدنيا لم تعد له قيمته .
الوزارة تصبح مبنى صغيرا مهجورا ، والبحث يصبح وهما صغيرا

من (وهم الفراغ • والاكتشاف • نعم الاكتشاف أيضا يصبح حلما
باهتا من احلام الطفولة

كان فريد يمتص آلامها وأحلامها وتصبح معه بغير آلام وبغير
أحلام • تصبح معه فؤادة أخرى غير التي ولدتها أمها • فؤادة بغير
ماض أو مستقبل • فؤادة التي تعيش لحظتها ويصبح هو كل
لحظتها •

كيف أصبح كل لحظتها ••؟ كيف أصبح رجل كل حياتها ••؟
كيف ابتلع شخص كل اهتمامها ••؟ انها لم تعرف كيف حدث هذا •
فهي ليست امرأة من ذلك النوع • الذي يهب حياته لأحد • ان
حياتها اكبر من ان توهب لرجل واحد وحياتها فوق ذلك ليست
ملكا لها • انها ملك العالم الذي تريد ان تغيره •

وتلفتت حولها في قلق • حياتها ملك العالم الذي تريد أن
تغيره •• ورات الناس تسير بسرعة ، والعربات تنطلق بسرعة ،
وكل شيء في العالم يجرى بغير توقف • هي فقط التي تقف •
وقونها لا يعنى شيئا لتلك الحركة المسرعة المتدفقة • وماذا يعنى
وقونها ••؟ ماذا تفعل قطرة في بحر ••؟ أهي قطرة في بحر ••؟
أهي قطرة ••؟ نعم ، هي قطرة ، وهما هو البحر من حولها •
تتلاطم أمواجه وتتضارع وتتسابق • ايمكن للقطرة أن تغلب الموج؟
ايمكن لقطرة أن تغير البحر ؟ •• لماذا عاشت هذا الوهم ؟

وابتلعت لعابا مرا ، وانكمشت داخل معطفها ، وسارت
ساهرة مطرقة حتى وصلت الى بيتها ، فدخلت وألقت نفسها فوق
السريير بملابسها •

فتحت عينها ونظرت في الساعة ، كانت الساعة • فردت
ساقها تحت الغطاء فشعرت بالآلام في مفاصلها •• اغمضت عينيها

لتنام مرة أخرى لكنها لم تنم . كانت قد نامت أربع ساعات متصلة . ولم يسبق لها أن نامت أربع ساعات متصلة في النهار . وتذكرت فجأة أنها لم تكن متصلة ، لقد صحت مرة وكانت الساعة الخامسة . ولم تكن نسييت أن موعد الساعات في السادسة . لكنها أغمضت عينيها وهي تقول لنفسها : لا زال امامي ساعة كاملة . وصحت مرة أخرى في السادسة الا ربعا . . وحركت ذراعها لتكشف عنها الغطاء وتنهض لكنها شددت الغطاء فوق رأسها وهمست لنفسها . . ماذا يحدث لو تأخرت قليلا . . ولم تفتح عينيها بعد ذلك الا في الساعة السابعة .

بقيت تحت الغطاء تتمطى وتتخيل منظر الساعات بجثته الضخمة وساقيه الرفيعتين وهو واقف أمام باب المعمل ، ضاغط على الجرس ، ولا أحد يرد . كانت تحس بسرور خفي ، فقد خلصها النوم من الساعات الى الأبد .

وملأها هذا الاحساس بالنشاط فاخترت آلام المفاصل ونهضت وارتدت ملابسها وخرجت . وبينما هي تهبط السلم ، رأت أمها تفتح شراعة الباب ، وبدأ وجهها الشاحب بخطوط تجاعيده الرأسية والأفقية والمائلة ، من خلف القضبان الحديدية الرفيعة ، كصفحة كتاب شطبت وشطبت عشرات المرات . وسمعت صوتها الواهن يقول : ذاهبة الى المعمل ؟ . . وقالت : نعم . وسألت : هل ستتأخرين ؟ . . وردت في شرود : لا أعلم . ورغبت في أن تسألها شيئا ، لكنها نظرت اليها في صمت ثم هبطت السلم وخرجت الى الشارع . .

كان الهواء باردا ثقيلًا ، وظلام الليل الكثيف يزيد من ثقل الهواء وكثافته . وسارت في الشارع بخطوات بطيئة حذرة .

كأنما ستصطدم بشيء ، وكأنما الضلام تكثف فى بعض أجزائه فأصبح أجساما صلبة يمكن أن تصطدم بها . وأسرعت الخطا لتخرج من شارعهم المظلم ، وسارت بحذاء المشتل ، وامتلأ أنفها برائحة الياسمين فانقبض قلبها . لماذا تبقى رائحته فى أنفها ؟ . لماذا يبقى ملمس شفثيه على عنقها ؟ . لماذا يبقى طعم قبلته فى فمها ؟ . لماذا تبقى هذه الأشياء معها ، فى حين أنه اختفى ؟ . اختفى بلحمه ودمه ورائحته وشفثيه . اختفى بكل شيء فيه فلماذا يبقى أى شيء منه ؟ .

ولكن ، هل بقي شيء منه ؟ . ألا تكون تلك الرائحة هى رائحتها ، وذلك الملمس هو جلدها ؟ وذلك الطعم هو لعابها ؟ . لماذا تبدو أشياءؤهما مختلطة وممتزجة الى هذا الحد ؟ . يمكن أن يكون هو جزءا منها ؟ . أو تكون هى جزءا منه ؟ . وتحسست رأسها وأطرافها . أى جزء يمكن أن يكون ؟ . وتحسست كتفها وصدرها وبطنها ، لكنها تنبهت فجأة الى انها تسير فى الشارع الواسع المضى ، ونظرات كثيرة تصوب نحوها ، فأسرعت الخطا الى محطة الأتوبيس .

ركبت الأتوبيس الى ميدان التحرير ، وسارت فى اتجاه شارع قصر النيل . ورأت العمارة من بعيد فشعرت بالكتلة الصلبة تتحرك فى قلبها . المعمل أيضا أصبح شيئا مقبضا . تلك الأنبوبة الفارغة التى تفتح فوهتها للهواء وجدرانها الزجاجية الشفافة تكشف قاعها الخاوى . منتصبه . هناك فى حاملها الخشبي ، تؤكد وجودها بغير محتوى .

وفتحت باب المعمل ودخلت . ولحمت فوق الأرض ورقة صغيرة فالتقطتها وقرأت الكلمات الصغيرة المنمقة : مررت فى السادسة ولم أجدك . سأمرفى التاسعة . الساعاتى . ونظرت

في الساعة • كانت الثامنة والنصف • واستدارت بسرعة الى الباب -
لكنها سمعت الجرس فارتعدت ووقفت لحظة خلف الباب دون أن
تفتح ودق الجرس مرة أخرى فقالت من وراء الباب : من ؟ • وجاءها
صوت البواب فابتلعت ريقها وقتحت الباب • كان مع البواب رجل
وامرأة وسمعت البواب يقول : كانا يسألان عن معمل للتحاليل
فأتيت بهما •

قادتھما الى حجرة الانتظار حيث جلسا ، وارتدت الفوطة
البيضاء في غرفة الابحاث ثم ذهبت اليهما • وقال الرجل بصوت
خشن : جئنا لتعرفي بالتحاليل ما سبب عقم زوجتي • وأشار الى
المرأة التي كانت جالسة مطرقة في صمت • ووجهت فؤادة كلامها
الى المرأة قائلة : هل عرضت نفسك على طبيب ؟ وحملتت فيها
المرأة صامته ورد الرجل قائلا : عرضتها على أطباء كثيرين ، وعملت
تحاليل وأشعات دون أن نعرف السبب • وسألته فؤادة : وهل
فحصت نفسك أنت أيضا ؟ • ونظر اليها الرجل في دهشة
وغضب وقال : أنا ؟ • وقالت في هدوء : نعم أنت ، الرجل
أحيانا يكون السبب • ونهض الرجل واقفا وشد المرأة من ذراعها
وقال في غضب : ما هذا الكلام الفارغ ! • انها لن تحلل هنا ! • •
وكان يمكن أن يأخذ زوجته ويخرج • لكن المرأة لم تتحرك
من مكانها • ظلت واقفة جامدة تحملق في زوجها بعينين واسعتين
لا ترمشان ، كأنما ماتت وتجمدت في هذا الوضع • وشعرت فؤادة
بشيء من الخوف فاقتربت من المرأة وربتت على كتفها قائلة : اذهب
مع زوجك يا سيدتي • وكأنما كانت في تلك اللمسة شحنة كهرباء
فانتفضت المرأة وأمسكت بذراع فؤادة بكل قوتها وصاحت بصوت
غريب : لن أذهب معه ! انقذيني ! انه يضربني كل يوم ويأخذني
الى أطباء يضعون أسياخا من الحديد في جسمي • فحصوا كل شيء
وحلوا كل شيء وقالوا اننى لست عقيما • انه هو المريض ! هو

العقيم . . ! تزوجني منذ عشر سنوات ولا زلت عذراء . انه ليس رجلا ! . . انه لا يعرف في الظلام مؤخرتي من رأسي ! . . وانقض عليها الرجل كالوحش، وراح يضربها بيديه وقدميه ورأسه ، فأخذت المرأة تضربه بكل قوتها ، وابتعدت عنهما فؤادة في ذعر وهي تتمتم لنفسها : مجنون ! سيقتل المرأة في معمل ! . . ماذا أفعل ؟ . . واتجهت الى الباب مسرعة ، وخرجت الى الممر لتنادي أحدا ، ورأت باب المصعد يفتح فجأة ، ويخرج منه الساعاتي .

وقالت في اضطراب : الرجل يضرب المرأة . ودوت صرخة عالية في تلك اللحظة فأسرع الساعاتي الى المعمل . كانت المرأة راقدة فوق الأرض والرجل يضربها في بطنها بحذائه ، وأمسكه الساعاتي بيد واحدة ، وصفعه باليد الأخرى عدة صفعات على وجهه وألقى به هو والمرأة خارج الشقة وأغلق الباب .

وقفت فؤادة جامدة في وسط الصالة ، تسمع صوتهما العالي وهما يتناحران على السلم . وسارت لتفتح الباب وتري ماذا يفعل الرجل بالمرأة . لكن صوتهما انقطع وأصبح الممر هادئا . وذهبت الى النافذة لتطل عليهما وهما يخرجان من العمارة وكانت تظن أن المرأة لن تخرج منتصبة على قدميها . لكنها دهشت حين رأت الرجل يخرج ومن ورائه المرأة ، كانت تسير مطرقة هادئة ، الهدوء نفسه الذي كانت عليه قبل الحادثة . وظلت فؤادة تحمق فيها حتى اختفت عن عينيها ، فتركت النافذة وجلست على أحد الكراسي شاردة .

كان الساعاتي يتأملها طول الوقت ولما رآها تجلس جلس هو الآخر على كرسي غير بعيد عنها . وقال وهو يبتسم : يبدو انك تتألمين من أجل المرأة . وتنهدت وقالت : انها بائسة . وتذبذبت العينان الجاحظتان وهو يقول : ما أكثر البؤساء الذين سترينهم هنا

فى معملك • ولكنك لن تستطيعى أن تفعلى لهم شيئا • ورفع أصبعه
الى فوق قائلا : لهم رب ! •• وردت قائلة بشيء من الضيق : أوجد
الرب ليمسح الناس فيه أخطاءهم ؟ ••
لم تعرف كيف قالت هذه الجملة ، فهى ليست جملتها • انها
جملة فريد • كانت تسمعها منه كثيرا • وذكرتها الجملة بفريد فخاص
قلبها فى أعماقها ككتلة صلبة مصمتة • وأطرقت صامتة واجمة •
وسمعت الساعاتى يقول : يبدو انك تأثرت من منظر المرأة • ولم
ترد وظلت مطرقة • ونهض وسار بضع خطوات مقتربا منها ثم
قال : قلبك طيب مع كل الناس ••• وسكت لحظة ثم أكمل بصوت
مضطرب : الا أنا •

ورفعت اليه عينيها فى دهشة ، فابتسم فى حرج وقال :
لماذا أخلفت موعدك معى ؟ •• كنت مشغولة ؟ أم ان هذه هى طبيعة
كل النساء ؟ •• وارتطمت « كل النساء » بأذنها فشعرت بغضب
وقالت بسرعة : أنا لست ككل النساء ! فقال كمن يعتذر : أعرف
انك لست ككل النساء • أعرف هذا جيدا ، وربما أعرفه أكثر من
اللازم •

وفتحت فمها لتسأله وكيف عرفت ولكنها أطبقت شفثيها فى
صمت • ومرت فترة صمت طويلة ثم وجدت نفسها تقول : ماهو
الأمر الهام ؟ •• وقال وهو يجلس : قابلت صدفة بالأمس وكيل
وزارة الكيمياء فى حفل عشاء • انه صديقى منذ سنين طويلة
وتذكرت أنك تعملين فى وزارة الكيمياء ، فسألته عنك • وقالت :
انه لا يعرفنى • وقال باسم : انه يعرفك جيدا • لقد وصفك لى
وصفا دقيقا • وقالت فى دهشة : شيء غريب • وقال : الغريب انه
لا يعرفك • وقالت : لماذا ؟ • وقال : انه رجل يتذوق الجمال •
ونظرت فى عينيها البارزتين فى غضب وقالت : أهذا هو

الموضوع الهام ؟ .. وقال : لا . ولكنى حين سألته عنك قال لي
انك موظفة ممتازة وتقاريرك ممتازة جدا . وابتسمت فى سخرية .
وقال : وخطرت لي فكرة وهو يتكلم عنك بهذا الحماس . أنا فى
الهيئة فى أشد الحاجة الى باحثة كيميائية . وقالت : ماذا تعنى ؟ ..
قال : أعنى أن أنقلك عندي فى الهيئة . وقالت : عندك ! ..
وأكمل كلامه قائلاً : لن يكون العمل كثيرا كما هو فى الوزارة .
لن تفعل شيئا على الاطلاق ، فالهيئة ليس بها معمل كيماوى .
ونظرت اليه بدهشة وقالت : ولماذا أذهب اذن ؟ .. وابتسم ،
فقفزت شفته العليا كاشفة عن أسنانه الصفراء وقال : ستكونين فى
مكتبى .

ونفضت واقفة . كان رأسها قد سخن . ونظرت فى عينيه
المهزوزتين نظرة ثابتة وقالت : أنا لست من هذا النوع يا أستاذ
ساعاتى .. ! اننى أريد أن أعمل .. ! أريد أن أقوم بأبحاث
كيماوية ! .. اننى أدفع عمري من أجل أن أعمل بحثا . وسكتت
لحظة وابتلعت ريقها ، وقالت : اننى أكره الوزارة ! أمقتها ! لأننى
لا أعمل فيها شيئا . لا أدري كيف تكون تقاريرى ممتازة وأنا لم أعمل
شيئا منذ ست سنوات ؟ .. لن أذهب الى الهيئة ، ولن أذهب الى
الوزارة . سأقدم استقالتي وأتفرغ لمعملي .

وظفت فوق عينيه سحابة خفيفة وأطرق الى الأرض . وسادت
فترة صمت طويلة . كانت فؤادة قد نهضت وسارت الى النافذة
ثم عادت فجلست على طرف الكرسي وكأنما ستنهض ثانيا .
واحتلس نظرة طويلة اليها من تحت نظارته السميقة . . كانت
هناك عضلة صغيرة ترتجف تحت عينها اليمنى . وقال بصوت
منخفض : أنا لا أفهمك فى هذه اللحظات التى تثورين فيها . عيناك
تمتلئان بحزن دفين . انك تنطوين فى أعماقك على ألم لا أعرف
سببه الحقيقى . وأنت صغيرة السن على أن تحملي بين جنبيك كل هذه

المراة • ولكن يبدو انك مررت بتجربة قاسية في حياتك • والحياة
يا فؤادة لا تحتمل كل هذا الجد • لماذا لا تأخذين الحياة كما هي ؟ •
واقترب منها وهي جالسة وأحست يده الطرية السميئة فوق
كتفها فانتفضت واقفة ، وسارت الى النافذة • وسار وراءها وهو
يقول : لماذا تضيعين شبابك في هذه الأوهام ؟ • أنظري • وأشار
لها الى الشارع • أنظري كيف يستمتع الشباب مثلك بحياته •
وأنت • أنت هنا في المعمل غارقة في عمل تحليلات وأبحاث •
عن أى شيء تبحثين ؟ • هل هناك شيء تريدينه ليس موجودا
في كل هذه الدنيا !؟

ومدت بصرها الى الشارع • كانت الأنوار والناس والعربات
تموج بحركة حية مرحة • لكنها حركة بعيدة عنها ، حركة منفصلة
عنها ، كحركة الصور المتحركة على شاشة السينما ، تحكى حياة
أخرى غير حياتها ، وقصة أخرى غير قصتها ، وشخصيات أخرى غير
شخصيتها • وهي وحدها ، وحدها داخل تلك الدائرة الضيقة التي
تلتف حولها ، والتي تضيق كثيرا لتصبح حدود جسمها •

وسمعت صوت الساعاتي يقول وكأنه يأتي من بعيد : يبدو
انك متعبة • اخلعي هذه الفوطة البيضاء وتعالى نخرج لنشم الهواء •
ونظر في ساعته ثم قال : عندي اجتماع الليلة في المجلس السياسي
ولكنى لن أذهب • هذه الاجتماعات السياسية مملة جدا • لا أدري
كيف أتكلم فيها كل هذا الكلام ، وفي كل مرة أقول الكلام نفسه •

وتذكرت فجأة الموضوع الصحفى الذى قرأته مرارا ، وصورته
التي نشرت كثيرا وقالت : يبدو ان لك نشاطا سياسيا واسعا •
وقال : لماذا ؟ • قالت : يخيل الى أننى قرأت كثيرا عن هذا
النشاط • وضحك ضحكة قصيرة اهتزت لها نظارته السميكة
وقال : أتقصدين ما يكتب فى الصحف ؟ • يخيل الى ان الناس

لم تعد تصدق شيئاً مما يكتب • أنهم يقرّون الصحف بحكم العادة
وليس لسبب آخر • هل تقرّئين الصحف كل يوم ؟ ••

وقالت : أقرؤها ولا أقرؤها • وابتسم وظهرت أسنانه ككل
مرة وقال : وماذا تقرّئين فعلاً ؟ •• قالت وهي تتنهد : الكيمياء •
وقال : تتكلمين عن الكيمياء وكأنك تتكلمين عن رجل تحبينه •• هل
أحببت رجلاً مرة ؟ ••

وكانما سكب فوق رأسها ماء بارداً فأفاقت لتجد نفسها واقفة
فى النافذة والى جوارها الساعاتى • واستدارت بسرعة فوجدت
المعمل خالياً صامتاً • ونظرت فى الساعة : كانت الحادية عشرة •
كيف حدث هذا ؟ •• ألم تحاول الهرب من المعمل قبل أن يأتى ؟ ••
وتذكرت حادثة الرجل والمرأة • ولكن ألم يكن فى استطاعتها أن
تنزل من المعمل مباشرة ؟ •• واختلست نظرة الى الساعاتى • كان
متكئاً على النافذة بنصفه الأعلى الكروى الضخم يتدلى من تحته ساقاه
الرفيعتان كساقى النعامة • وكانت عيناه تتذبذبان من تحت الزجاج
السميك وفيهما تلك النظرة الضفدعية الجاحظة • وخيل اليها
انها أمام نوع غريب من الزواحف البرية غير المستأنسة • وتلفتت
حولها فى شىء من الخوف • وقالت وهى تخلع الفوطة البيضاء ونتجه
الى الباب : يجب أن أعود الى البيت فوراً •

ونظر اليها فى دهشة ثم قال : كنا نتكلم فى هدوء فما الذى
حدث ؟ •• هل ضايقتك سؤالى ؟ •• وقالت : لا ، لم يضايقنى
شىء ، ولكن أمى وحدها فى البيت ولا بد أن أعود فوراً • وقال وهو
يسير معها الى الباب : يمكننى أن أوصلك بعربتى • وفتحت الباب
وهى تقول : أشكرك • سأخذ الأتوبيس • وقال : الأتوبيس •••
فى هذا الوقت المتأخر ؟ •• لا يمكن ••• وهبطا الى الدور
الأرضى • وسبقها الى عربة زرقاء طويلة وفتح لها الباب • رأت

البواب ينتصب واقفا فى احترام • ووقفت لحظة مترددة • كانت تريد أن تهرب • لكنها لم تعرف • كان الباب مفتوحا ، والرجلان واقفان ينتظران دخولها ، فدخلت وأغلق الساعاتى الباب ، ثم أسرع الى الناحية الأخرى من العربة وفتح بابها وجلس وأدار المحرك •

كان الشارع خاليا الا من عدد قليل من الناس والعربات ، وكان الهواء باردا رطبا • ورأت رجلا يقف أمام كشك سجاثر • وارتعدت فجأة وكادت تصيح : فريد ! • لكن الرجل استدار ورأت وجهه • لم يكن فريدا • وانكشمت داخل المعطف ترتجف ببرودة مفاجئة • ونظر اليها الساعاتى وقال : هل رأيت أحدا تعرفينه ••• وقالت بصوت خافت : لا • وسألها : أين تسكنين •• قالت : فى الدقى •• ووصفت له الشارع والبيت ••

اجتازت العربة كوبرى قصر النيل ، ورأت برج القاهرة واقفا منتصبا فى الظلام كشبح ضخم ، وعيناه الحمران المتوهجتان تدوران حول رأسه دورانا مستمرا • وشعرت بدوار وهى تحملق فى الكرات المتوهجة الدائرة حول نفسها وبدأ لها البرج برجين اثنين وله رأسان يدوران • ودعكت عينيها بيديها فاخفتى البرج الثانى وبقي برج واحد له رأس واحد يدور ، ثم ظهر البرج الثانى ، ودعكت عينيها ليخفى البرج الثانى لسكنه لم يخفى • ونظرت الى الساعاتى بطرف عينا ورأت له رأسين وأربع عيون جاحظة وارتعدت وأخفت وجهها بيديها •

وسمعت صوته يقول : انت متعبة ••• وقالت وهى ترفع رأسها : أشعر بصداع • ونظرت من خلال النافذة • كان الظلام كثيفا فلم تر الا كتلا من السواد وتذكرت فجأة قصة قرأتها عن رجل شاذ كان يتصيد النساء ويذهب بهن الى مكان مظلم بعيد ويذبحهن • واختلست نظرة حذرة الى الساعاتى • كان جالسا

وعيناه الجاحظتان تنظران الى الامام ، ورقبته المكتنزة باللحم تستند الى الكرسي ، وركبتاه الرفيعتان مديبتان . والتفت ناحيتها ، فنظرت من النافذة . كانت البيوت مغلقة بالشيش ومظلمة . لانور يظهر في نافذة ولا أحد يسير في الشارع .

لماذا ركبت معه العربية ؟ . من هو ؟ . انها لا تعرفه .
لا تعرف عنه شيئا اهي صاحبة أم أنها تحلم حلما مزعجا ؟ .
وضغطت بظفرها على فخذها لتتأكد من وجودها .

وخيل اليها ان العربية تقف . وارتعدت وهي تلتصق بالباب .
وسمعت صوت الساعاتي يقول : أهذا هو البيت ؟ . ونظرت من النافذة . ورأت بيتها فهتفت بدهشة : انه هو ! . وفتحت الباب وخرجت مسرعة . وخرج هو أيضا . وسار معها الى الباب . كان السلم غارقا في ظلام دامس وقال لها : انت متعبة والسلم مظلم ، هل أصعد معك حتى باب الشقة ؟ . وقالت بسرعة : لا لا أشكرك . سأصعد وحدي . ومد يده الطرية وهو يقول : هل أراك غدا ؟ . وقالت في اضطراب : لا أدري . لا أعلم . ربما لا أخرج غدا . وبرقت عيناه البارزتان في الظلام وقال : انت متعبة . سأسأل عنك بالتليفون . وابتسم : لا ترهقي نفسك في الأبحاث الكيميائية ! .

وصعدت السلم بقدمين مرتجفتين . وخيل اليها انه سيصعد ورائها . كثير من الجرائم تقع على سلم مظلم . ووصلت الى باب الشقة وهي تلهث . وأخرجت المفتاح وارتجفت أصابعها وهي تبحث عن الثقب . وفتحت الباب ودخلت وأغلقت الباب خلفها بسرعة . .
وسمعت صوت أنفاس أمها العالية المنتظمة فشعرت ببعض الهدوء . لكنها كانت لا تزال تنتفض من البرد . وارتدت ملابس صوفية ثقيلة ودست نفسها في الفراش وأسنانها تصطك وأغمضت عينيها وغابت عن الوعي .



فتحت عينيها فى الصباح على صوت أمها • كانت تقول لها شيئاً لم تسمعه • ورأت عيني أمها الواسعتين (الصفراوين) تنظران إليها فى قلق • وحاولت أن ترفع رأسها من فوق الوسادة فلم تستطع • كان رأسها ثقيلًا ترتج داخله كتلة صلبة وترتطم بعظام رأسها محدثة صوتًا • كأنما تجمد مجها وأصبح مادة معدنية • ودارت عيناها فى الغرفة • ورأت الدولاب والنافذة والشماعة والتليفون فوق الرف • وفتحت فمها لتقول شيئاً لكنها أحست بألم حاد فى حلقها • ورأت وجه أمها المجدد يقترب منها وسمعتها تقول : هل تريدين التليفون ؟ • وهزت رأسها وخرج صوتها مبحوحًا : لا لا • خذيه الى الصلاة • لا أريده هنا ! • وحملت أمها التليفون فوق صدرها وكأنها تحمل قفا أسود ميتًا • وسمعت صوت قدميها تزحفان الى الصلاة ثم تعودان الى حجرتها •

وأخفت رأسها تحت الغطاء • وسمعت صوت أمها يقول : سمعتك تسعلين بالليل، هل أخذت بردًا ؟ • وردت من تحت الغطاء : يبدو ذلك يا ماما • وحركت لسانها الجاف فى فمها فأحست بمرارة تهبط الى جوفها • ورغبت فى البصق وأخرجت المنديل من تحت الوسادة وبصقت • ومسحت أنفها الذى كان يرشح • وأحست بشيء صلب كالحصوة يحتك بحلقها • وراحت تعطس وتسعل لكن الحصوة لم تطرد • كانت تزحف ببطء مع الهواء داخل صدرها •

وسمعت أمها تقول شيئًا فقالت : نعم دون أن تعرف ماذا كانت تقول ، وسمعت القدمين تزحفان خارج الغرفة وصنعت لأنفها فتحة صغيرة بين السرير والغطاء ليدخل منها الهواء • لكن الضوء دخل أيضًا ورأت يدها تحت رأسها • وحول معصمها كانت تلتف الساعة • والتقطت عيناها الرقم الذى يشير الى العقرب الصغير وتذكرت الوزارة • وسدت فتحة الضوء فعاد الليل مرة أخرى •

نعم ، ليعد الليل وييق • وليختف الضوء من حولها ولا يكن
هناك نهار أبدام فما فائدة النهار ؟ •• تلك الحركة الدائرية من
البيت الى الوزارة ومن الوزارة الى المعمل ومن المعمل الى البيت •
ما جدوى هذه الحركة ؟ •• ما جدوى الدوران فى تلك الحلقة
المفرغة ؟ •• تحريك عضلات الذراعين والساقين ؟ •• تنشيط
الهضم ودورة الدم ؟ •• وتذكرت صوت الساعاتى : عن أى شىء
تبحثين ••• هل هناك شىء تريدينه ليس موجودا فى كل هذه
الدنيا ؟ •• انها لا تريد شيئا من كل هذه الدنيا • لا تريد أن
تأخذ شيئا منها • لا تريد مالا وماذا تفعل بالمال ؟ •• ماذا تفعل
المرأة بالمال فى هذه الدنيا ؟ •• تشتري فساتين غالية كثيرة ••• ولكن
ما فائدة الفساتين الغالية ؟ •• انها لا تذكر شكل فساتينها •
لا تذكر ان (فريد) نظر الى فستانها مرة واحدة • لم تحس يوما
ان فستانها له قيمة ما سوى انه يغطي أجزاء من جسمها •

وماذا غير الفساتين ؟ •• ماذا تفعل امرأة بالمال فى هذه
الدنيا غير شراء الفساتين ؟ •• تشتري أدوات الزينة وعلب
البودرة ؟ •• ذلك المسحوف الأبيض الذى تدهن به المرأة وجهها
وتخفي تلك الشعيرات الدموية التى تجرى فى البشرة الحية ؟ •
وماذا يبقى للبشرة الحية بعد أن يختفي منها لون الدم ؟ •• ذلك
الجلد المعتم الميت ؟ •• ذلك اللون الجيرى الأبيض كلون حذاء
الكاوتش •

وماذا غير شراء المساحيق والفساتين ؟ •• ماذا تريد امرأة
من هذه الدنيا ؟ •• الذهاب الى السينما ••• زيارة الصديقات •••
النميمة والغيرة والسعي من أجل الزواج •••
ولكنها لا تريد شيئا من هذا • انها لا تشتري مساحيق ،
ولا تذهب الى السينما ، وليس لها صديقات ولا تسعى وراء زواج •
فما الذى تريده ؟ ••

وضغطت برأسها فوق الوسادة وجزت على أسنانها فى غيظ:
ماذا أريد ؟ ماذا أريد ؟ لماذا لا أريد تلك الأشياء التى تريدها
النساء ؟ ألسنت امرأة مثلهن ؟ ؟

ورفعت الغطاء قليلا عن وجهها ليدخل الهواء ، ورأت أصابعها
الرفيعة وأظافرها • أصابع وأظافر امرأة • وتحسست بشرتها
وجسمها • بشرة امرأة وجسم امرأة • انها امرأة فعلا • فلماذا
لا تريد ما تريده النساء ؟ ؟ لماذا ؟ ؟

نعم ، لماذا ؟ لماذا ؟ انها لا تعرف • أتكون الكيمياء هى
السبب ؟ • ولكن أهي الوحيدة التى درست الكيمياء ؟ أتكون
مدام كورى هى السبب ؟ • ولكن أهي الوحيدة التى سمعت عن
مدام كورى ؟ • أتكون مدرسة الكيمياء ؟ • ولكن أين هى مدرسة
الكيمياء ؟ • انها لا تعرف عنها شيئا • انها لم تسمح عنها شيئا
منذ تركت المدرسة • أتعلق حياتها على كلمة قالتها امرأة مغمورة ؟ •
أتكون أمها ؟ • ولكن أتعرف أمها شيئا عن العالم الواسع خارج
جدران البيت ؟ • أكون فريد ؟ • ولكن أين هو فريد ؟ •
من هو ؟ • انها لا تعرف أحدا يعرفه ، ولا تعرف أين هو ، ولا تعرف
أكان موجودا حقا فى يوم من الأيام • ربما كان وهما ، ربما كان
حلمًا • انه غائب • ومادام غائبا فكيف اذن تفرق بين الحلم
والحقيقة ؟ • لو ترك ورقة صغيرة بخط يده لاستطاعت أن تعرف •
نعم ، ورقة صغيرة تستطيع ، أما هى برأسها وذراعيها وساقها
فلا تستطيع شيئا • لا يستطيع جسمها شيئا ، ولا رأسها أيضا •
كل شيء يتحول داخل رأسها الى طنين أخرس • كل شيء ينسحق
داخلها الى صفيح حاد مستمر كذلك الصغير الذى يدوى حين تصمت
كل الأشياء •

نعم ، انه الصمت المطبق فى أعماق ذلك الجسد الممدود فى
عجز تحت الغطاء • الصمت ولا شيء غير الصمت • انه عاجز عن أن

يقول شيئا • تلك الكلمات التي تخرج من بين شفثيه ليست
كلماته • انها أصداء متناثرة لكلمات سمعها من قبل • كلمات
قالها فريد ، أو أمها ، أو مدرسة الكيمياء ، أو كلمات قرأها في
الكتب • نعم ، انه يردد ما سمع وما قرأ • انه قادر على التردد
فحسب كأبي جدار من الحجر •

وحركت جسمها تحت الغطاء • كان ثقيلًا كأنه قد تحجّر
وأحست بسخونة شديدة وعرق غزير يبلى جسمها ، وسائل دافئ
لزوج ينساب من أنفها ، فأخرجت المنديل من تحت الوسادة ومسحت
أنفها في تقزز • أنفها يرشح كصنبور بال وجسمها ينز بالعرق •
انها ليست جدارا جافا نظيفا • ولكنها جدار رشق في رأسه وبطنه
بصنابير بالية ترشح من فوق ومن تحت • بلولة لارادية مقرزة ••:

ورفست الغطاء عن جسمها •• كانت تريد أن ترفس عنها
ذراعها وساقها ، كانت تريد أن ترفس عنها جسدها • لكنه ظل
ملتصقا به ، مشدودا اليها ، جاثما فوقها بثقله الكئيب وبلونته
الكريهة كشخص آخر غريب عنها •

غريب عنها •• ! غرابة أي شخص يقابلها صدفة في طريق ،
غرابة بواب العمارة ، غرابة الساعاتي ••• ا وارتعدت • نعم ،
غريب كل هذه الغرابة • يبتلع الأكل في جوفه ولا تعرف ماذا
يفعل به • تسمع أصواتا أحيانا في معدتها كمواء القطط كأنها
لا تعرف ماذا يدور هناك • أين تذهب تلك الكميات الكبيرة من
الطعام ؟ •• كالطاحونة ••• تدور وتدور وتسحق الأشياء الصلبة •
انه الدوران والسحق ولا شيء سواهما • لا شيء آخر ••

وماذا يمكن أن يكون الشيء الآخر •• ! ذلك الوهم الذي كان
ينرأى من وراء الضباب ؟ •• أنبوبة الاختبار يتراقص من فوهتها
غاز جديد ؟ •• وماذا يفعل الغاز الجديد ؟ •• قنبلة هيدروجينية

جديدة؟ صاروخ له رأس نووى جديد؟ ماذا ينقص العالم؟
وسيلة جديدة للقتل؟

ولماذا القتل؟ ألا يكون شيئا آخر له فائدة؟ شيئا
يقضى على الجوع؟ على المرض؟ على الشقاء؟ على الظلم؟
على الاستغلال؟ نعم نعم... أيها الرأس المصمت، ردد
الكلمات التي سمعتها من فريد. ردد الصدى كأبي جدار. ماذا تعرف
انت عن الجوع؟ وماذا تعرف عن المرض؟ وماذا تعرف عن
الشقاء؟ وماذا تعرف عن الظلم؟ وماذا تعرف عن
الاستغلال؟ ماذا تعرف عن هذه الأشياء التي تحدث للناس
وأنت لا تعيش مع الناس؟ تنظر اليهم من بعيد وتتأمل
حركاتهم وسكناتهم وكأنهم صور متحركة فوق شاشة بيضاء.
هل جعت يوما؟ هل رأيت يوما انسانا جائعا؟ تلك
الشحاذة الجالسة على رصيف الوزارة وفي حجرها الطفل الصغير.
هل رأيتها مرة؟ هل نظرت في عينيها لحظة؟ ألم تكن ترى منها
ألا ظهرها الذي تغرقه الشمس الدافئة وتحسدها؟

هل عرفت شيئا من هذا أيها الرأس المصمت؟ ألم الاصرار
اذن على هذا الوهم؟ ألا تأكل وتشرب وتبول وتنام كالآخرين.
لماذا لا تكون كالآخرين. لماذا؟

نعم، لماذا؟ لماذا؟ لماذا لا تكون كالآخرين وتستقر
وتهدأ وتقبل حياتك كما هي؟ لماذا لا تأخذ الحياة كما هي؟ وهذه
الكلمات أيضا ليست كلماتك. ألم تسمع هذا السؤال نفسه من
الساعاتى بالأمس فى المعمل؟ أنتخزن فى جوفك كل الكلمات؟
حتى كلمات الساعاتى؟ يا لتفاهتك! ألا تقول كلمة واحدة من
عندك؟

وأفاقت فؤادة على صوت أمها. ورائها تقف الى جوارها تمد
يديها النحيلتين المعروقتين بكوب من الشاي. ونظرت الى أصابعها

الرفيعة الطويلة المجددة . أصابعها طويلة رفيعة كأصابع أمها ، وسوف تصبح مجددة كأصابعها بارزة المفاصل كعيذان الذرة الجافة . ورفعت اليها عينيها . ورات وجهها ذا التجاعيد الكثيرة ، وشفتيها اليابستين منفرجتين . الفرجة نفسها ، والاسنان نفسها ، وسوف تملأ التجاعيد نفسها ووجهها هي أيضا ، وسوف تعجز قدماها عن المشي السريع وتزحفان مثل قدميها .

ومدت ذراعا نحيلة واهبة وأخذت منها كوب الشاي . وجلست أمها على طرف السرير تنظر اليها . لماذا هي صامتة . لماذا لا تقول شيئا . . لماذا لا ترفع يديها للسماء وتردد دعوتها القديمة . . . راح ائلم وضاع الوهم . انها لم تلد فلتة من فلتات الطبيعة . من قال لها انها ستلد فلتة ؟ . ولماذا هي بالذات ؟ . لماذا بطنها بالذات ؟ . ملايين البطون تلد كل يوم فمن الذى وضع فى رأسها ذلك الوهم ؟ . ربما أمها هي التى أورثتها هذا الوهم كما ورثته فؤادة عنها . انها امرأة من العائلة تصورت بطنها غير البطون . انها واحدة التى بدأت . لا بد أن تكون هناك واحدة بدأت . لا بد أن يكون هناك دائما من يبدأ . وسمعت صوت أمها يقول فى حزن : مالك يا فؤادة . . لماذا لا تتكلمين . . كان صوتها حنونا الى حد انها رغبت فى البكاء . لكنها ابتلعت دموعها وفتحت فمها المر لتقول : عندي صداع شديد . وسألت الأم : هل آتى لك باسبرين ؟ . وهزت رأسها : نعم . وخرجت الأم الى الصالة مرة أخرى . وبينما هي فى الصالة دق جرس التليفون . وقفزت فؤادة من فوق السرير وهي ترتعد . أياكون الساعاتى ؟ ووقفت على عتبة بابها تنظر الى التليفون . واقتربت أمها من التليفون لترد لكنها صاحت : لا ترفعى السماعة يا ماما . . . هناك شخص لا أريد أن أكلمه . . ! لكنها تذكرت فجأة أنه ربما يكون (فريد) فقفزت الى التلفون فى خطوة واحدة ورفعت السماعة وهي تلهث . الو . وجاءها صوت الساعاتى اللزج فسقطت على الكرسي كالجثة الهامدة .

الفصل الثالث

خرجت فؤادة من الوازرة ، وسارت بعزاء السور الحديدي
الصدىء ، كان رأسها ثقيلًا ، وقلبها ترتج داخله الجلطة المتصلبة
المزمنة . ورأت المرأة الجالسة على الرصيف ، تحتضن طفلها في صدرها
وتمد يدها الفارغة للناس . والشارع صاخب مزدحم . لا يرى الذراع
الممدودة أحد ، وقد يدفعها واحد بعيدا ليفسح الطريق أو يدوسها
آخر وهو مسرع . وسمعت بكاء الطفل وهي تمر بجانبها . ورأت هيكلًا
صغيرًا له عينان غائرتان وخدان بارزان وفم صغير مدبب ، يحاول
دون جدوى أن يمص قطعة جلد أسمر مجعد تتدلى من صدرها .
ووضعت يدها في جيبها لتخرج قرشا ، لكن يدها بقيت داخل
جيبها . ورفعت عينيها الى الشارع . كانت العربات الطويلة تجرى
الواحدة وراء الأخرى ، وفي كل عربة منها رأس لامع يعكس الضوء ،
ورقبة مكتنزة باللحم تشبه رقبة الساعاتي .

وأخرجت القرش وأمسكته في يدها لحظة . ماذا يفعل القرش؟
هل يكسو عظام الهيكل الصغير باللحم ؟ . هل يدر اللبن في
تلك القطعة المتدلية من الجلد ؟ وعضت بأسنانها على شففتها . ماذا

يمكن أن تفعل ؟ •• اكتشاف كيميائي يقضى على الجوع ؟ •• غاز جديد
يتنفسه الملايين بدل الأكل ؟

وتركت القرش يقع من بين أصابعها في الكف الفارغة الممدودة ،
لن يفعل القرش شيئا ، ولكن ليكن صدقة عابرة ترضى بها ضميرها
ليكن ثمنا بخسا تدفعه وتنسى •

انها كلمات فريد تعود • وصوته في رأسها له دبيب • وعيناها
تبحثن عن عينييه البنيّتين اللامعتين • عيون كثيرة من حولها فلماذا
عينييه بالذات ؟ • حين كانت تنظر في عينييه من قرب لم تكن تشعر
بذلك الاستغراب • وهى تستغرب منظر العيون عن قرب ، حتى عيني
أمها ، بل حتى عينيها هى نفسها ، حين كانت تقربهما من المرأة يختفى
الشكل المألوف ، كأنهما عينا حيوان غير أليف • لكن عيني فريد كان
فيهما شيء غريب • شيء قريب • يقترب ويقترب ولا يبدو غريبا ،
وحين تتلاشى المسافة بينها وبينه ويتلامسان تحس بأمان شديد •

أىكون ذلك كله وهما ؟ •• اتخدعها أحاسيسها الى هذا الحد ؟
•• واذا كذبت أحاسيسها فأى شيء تصدق ؟ •• كلمات من حبر
على ورق •• خطابا رسميا عليه ختم الوزارة ، شهادة بصم عليها
اثنان ؟ •• أى شيء تصدق اذا كذبت أحاسيسها ؟

وتوقفت فجأة لتسأل : ولكن ما هى الاحاسيس ؟ •• ايمكن
أن تلمسها ؟ •• ايمكن أن تراها ؟ •• ايمكن أن تشمها ؟ •• ايمكن
أن تضعها فى أنبوبة اختبار وتحللها •• أحاسيس •• مجرد
أحاسيس •• حركة غير مرئية تحدث فى رأسها ، كالاهام ، كالأحلام
كالقوى الخفية •• أىمن عقلها الكيميائي بهذه الخزعبلات ؟ ••

وتلفتت حولها كالتائهة • هل الاحاسيس خرافة أم حقيقة ؟
لماذا تنظر فى عيني فريد فتحس انه قريب ، وتنظر فى عيني

الساعاتى فتحس انه لص • أهى وهم أم علم ؟ • أهى حركة
عشواء فى أعصاب العين أم حركة واعية فى خلايا المخ • وكيف
تفرق بينهما ؟ • كيف تفرق بين ذبذبة خاطئة لعصب مرهق وبين
فكرة سليمة لخلية فى المخ ؟ • وكيف تفكر خلية المخ ؟ • تلك
الكتلة الصغيرة من البروتوبلازم كيف تفكر ؟ • من أين تأتيها
الفكرة وكيف تسري فى نسيجها المادى • كهرباء ! تفاعل كيماوى !

ورفعت رأسها لترى ما حولها • ولمحت العمارة ومن فوقها
اللافتة البيضاء تحمل حروف اسمها السوداء • وانقبض قلبها •
الانبوبة ذات الفوهة المفتوحة وقاع بغير محتوى • ولسان اللهب
يحرق الهواء ويحترق • وذلك الصغير الحاد يدوي فى الأذنين حين
تصمت كل الأشياء •

نعم ، انه المعمل • لكنه لم يعد معملا • أصبح مصيدة ، يتصيد
عجزها ، يتصيد جهلها ، يتصيد الصمت واللا شىء من رأسها •

ومرت أمام باب العمارة ولم تدخل • وسارت بضع خطوات ثم
توقفت • الى أين تذهب • كل مكان أصبح كالمعمل مصيدة للعجز
والصمت والصغير • البيت والوزارة والتليفون والشارع • كل شىء
أصبح متشابها كأنه مترابط •

وعادت لتدخل الى العمارة ولتصعد الى المعمل • لا مفر ولا مهرب ،
المصيدة تفتح فكيتها وهى تدخل بينهما ، وسيأتى الساعاتى بعد
قليل ، سيأتى حتما الى المعمل أو الى أى مكان ، فقد عرف كل مكان ،
عرف التليفون والبيت والوزارة والمعمل ، سيأتى بعربته الطويلة
الزرقاء وعينييه الجاحظتين ورقبته المكتنزة باللحم ، سيأتى حتما
فلماذا لا يختل توازن الأرض فيهتز حامل الانابيب وتسقط
الانبوبة الفارغة وتنكسر ؟ لماذا تدور الأرض بكل هذا الاتقان • •
لماذا لا يختل توازنها مرة واحدة فحسب ؟ • •

كانت قد دخلت المعمل ، وارتدت الفوطة البيضاء ، ووقفت وراء
النافذة تتأمل الشارع وتراقب العربات كأنما تنتظره . كانت تنتظره
فعلا . ورات العربة الزرقاء الطويلة تقف أمام العمارة ، وخرج منها
الساعاتى بنصفه الاعلى الضخم وساقيه الرفيعتين .

وسارت بخطوات ثقيلة نحو الباب . ولمحت نفسها فى المرآة
الطويلة المجاورة للباب . كان وجهها قد نحل واستطال ، وعيناها
غاصتا فى محجريها وانطفأتا ، وفرجة فمها زادت اتساعا . وأسنانها
برزت اكثر وأكثر فكانها أسنان أمها .

وأطبقت شفيتها لتخبىء أسنانها ، وضغطت فكها الاعلى فوق
الأسفل بكل قوتها لتسحق أسنانها بينهما ، أو لتسحق شيئا آخر .
لا بد أن يكون هناك شيء يسحق . واصطكت أسنانها محدثة صوتا
معدنيا . ودق جرس الباب . وضربت الهواء بقبضتها وقالت :
لن أفتح ! . . . ووقفت جامدة كالتمثال . ودق الجرس مرة أخرى
فازدادت أنفاسها سرعة وأصبح صدرها يعلو ويهبط كأنما تلهث
وتلقتت حولها وتصيدت الفوهة المفتوحة عينيها كالفتح ، فسارت
وفتحت الباب .



كان يحمل فى يديه السمينتين علبة صغيرة . وتقلصت شفته
العليا كاشفة عن أسنانه الكبيرة الصفراء وتذبذبت عيناه الجاحظتان
من تحت الزجاج السميك وقال : هدية بسيطة . ووضع العلبة فوق
المنضدة وجلس .

وظلت واقفة ، تنظر الى الشريط الرفيع الاخضر الملتف حول
العلبة . وسمعت صوته المبتهج يقول : افتحى العلبة . . انه يوجه
اليها أمرا . . انه يكتسب لنفسه حقا فى أن يأمرها . لقد دفع ثمن
هذا الحق وله أن يستخدمه . ونظرت فى عينيه . كأننا تتذبذبان

بدرجة أقل • كأنما بدأ يثق في نفسه بعض الشيء • انه أعطاها شيئا • وانه دفع لها ثمنا • انه أصبح قادرا على أن يشتري منها شيئا ، أى شيء ، ولو ذلك الحق في أن يأمرها بأن تفتح العلبة • وظلت واقفة لا ترد •

ونفض وفتح العلبة بنفسه • وسار اليها حيث هي واقفة وقرب منها العلبة وهو يقول : ما رأيك في هذا الخاتم ؟•

ورأت شيئا يبرق فوق قطيفة حمراء • وقالت في شرود وهي تنظر الى أسنانه الصفراء : أنا لا أفهم في هذه الاشياء •

وحملق فيها مندهشا وقال : ان فيه فصا من الماس الحر ! •••

واقترب وجهه منها • ورأت عينيه الجاحظتين عن قرب يطفو فوقهما غشاء معتم يخفي ذلك البريق الطبيعي للعينين •

لعله دفع ثمنا غاليا • ربما دفع مائة جنيه أو أكثر • ولكن ما قيمة هذا عندها ؟

انها لا تستخدم هذه الأشياء • لارتبس الخواتم أو الأساور أو العقود • انها تضيق بجذابها الذي يلتف حول جسمها فكيف حول أعضائها جبلا آخر ؟ •• انها تحس ثقل عضلاتها وعظامها فكيف تثقل مفاصلها بسلاسل معدنية من أى نوع كانت •• ؟

واقترب منها وهو يردد : ان فيه فصا من الماس الحر •• ! وابتسمت في صمت • انه لن يفهم أبدا • ماس حر لن تستخدمه في شيء ، فما الفرق بينه وبين قطعة عاج أو زجاج ؟ •• هل يفرق التراب بين أى شيء ؟

وعادت الى عينيه الذبذبة بدرجتها المعهودة وقال بصوت مصدوم : أى هدية يمكن أن ترضيك ؟ ولم تعرف بماذا ترد • ماذا

كان فريد يهديها ؟ • هل اشترى لها فريد هدية ؟ • انها لا تذكر .
لم يكن يشتري لها شيئا • لم يكن هناك شيء قابل للشراء • وماذا
كان يمكن أن يشتري ؟ • كلماته ؟ • نبرة صوته ؟ • بريق عينيه ؟
دفع أنفاسه وحنان شفثيه ؟ •

ووضع يده السمينة الطرية فوق كتفها وقال : ماذا آتى به
اليك لتكوني سعيدة ؟ • وتقلصت عضلات كتفها ونفضت عنها
ثقل يده • وتلفتت حولها • ماذا يمكن أن يأتى لى به • • • • •
يأتى بالمحتوى الهارب من الانبوبة ؟ • • • • •
الضائعة • • • • •
يمكن أن ترفع السماعة يوما فينقطع الجرس ويأتيها الصسوت
الغائب ؟

ونظرت اليه • كان يضع العلبة فى جيبه بأصابع مرتجفة •
انه لن يستطيع شيئا فماذا تقول له ؟ وسارت بضع خطوات مضطربة
ثم قالت بصوت مختنق : هيا نخرج . إني أكاد أختنق •



سارت بهما السيارة الزرقاء الطويلة فى شوارع القاهرة ،
وظلا صامتين حتى خرجت السيارة الى الخلاء بالقرب من الهرم ،
ثم سمعته يقول بصوت غليظ : فى حياتك سر لا أفهمه ، لماذا
لا تفتحين قلبك لى ؟ • • • • • ونظرت اليه نظرة خاطفة ثم مدت بصرها الى
الصحراء الواسعة وقالت : لا اعرف لحياتي سرا أو معنى ، آكل
وانام كأي حيوان ولا أفعل شيئا مفيدا لأحد •

وارتجت العتامة فوق عينيه الجاحظتين وقال : ألا زلت فى هذه
المرحلة الاولى ؟ • • • • • وقالت ماذا تعني ؟ • • • • • قال وهو يتنهد : كنت
أعيش هذه المرحلة منذ عشرين سنة • وسكنت لحظة • ثم قال :
ولكننى اكتشفت أن الحياة الواقعية شيء آخر •

وقالت : ما تعني ؟ • وقال وهو يبتسم ابتسامة ضيقة : كانت

المبادئ الرفيعة تضعني دائما في صدام مع الحياة الواقعية • وقالوا
عنى « غير متكيف » •

وسألت : من هم ؟ • وقال : زملائي فى الجامعة •
وقالت : هل كنت فى الجامعة ؟ • قال : كنت مدرّساً صاحب
مبدأ •

وسألت : وماذا حدث ؟ • وضحك ضحكة قصيرة ثم قال : ثم
تكيفت • • !

والتفت ناحيتها وثبتت عيناه الملاحظتان لحظة وقال : لم يكن
أمامى طريق آخر •

وسألت : هل أجريت بحثا وانت فى الجامعة ؟

قال : أجريت ثلاثة وسبعين بحثا •

وصاحت فى دهشة : ثلاثة وسبعين بحثا • • كيف ؟ هذا
مستحيل •

وقال وهو يمصمص شفثيه : كان شيئا بسيطا جدا • كنت
أضع اسمى فحسب •

وسألت فى ذهول : والباحث الحقيقى ؟

قال : كان شابا صغيرا لا يزال يسعى للوصول •

وصاحت : ولكن • • لماذا لم تُجرِ أنت بنفسك بحثاً واحداً
عميقاً • • •

وقال فى بساطة : لم يكن ذلك ممكنا ، ثم ان الاستغراق فى
أى بحث حقيقى يمتص العمر ويضيع فرص الحياة الواقعية •

وسكنت لحظة ساهمة • ونظرت في عينيه الجاحظتين المتذبذبتين
وقالت لنفسها : تماما كما أحسست أول مرة •• عينا لص ! لقد
سرق ثلاثة وسبعين بحثا •

وقالت : ثم ماذا ••؟ وضحك : ثم أصبحت أستاذًا كبيرًا •

وقالت : ثم ماذا ••؟ وابتسم : طموح الانسان بغير حدود •
اتجهت الى السياسة • قالت : وماذا تعرف في السياسة ••؟ وقال:
كل شيء • يكفي أن أصادق هذا وذاك وأردد بعض شعارات بنبرة
فصيحة •

ونظرت الى رقيبته المكتنزة باللحم فى تقزز وقالت : وهى
تحترم نفسك الآن ؟ •• وقال بالصوت نفسه : كيف يحترم الانسان
نفسه يا فؤادة •• احترام النفس لا يحدث فى فراغ • انه ينبع من
احترام الآخرين •• وأنا ؟ •• أنا رئيس الهيئة العليا للانشاءات
والمباني ، ورئيس المجلس السياسى ، والصـحـف تكتب عني ،
وأتحـدث فى الراديو والتلفزيون وأعطي نصائحى للناس • العالم
كله يحترمني فكيف لا أحترم نفسى •• !

وأوقف العربة الى جانب الطريق • ونظر اليها وقال : صدقيني
يا فؤادة •• اننى أحترم نفسى • بل أكثر من ذلك •• اننى أصدق
الأكاذيب التى أرددتها أمام الناس • أنا نفسى أصبحت أصدقها
من كثرة ما رددتها بصوت قوي مقنع • ما هو الانسان يا فؤادة ؟
ما هو الانسان ؟ أليس مجموعة من أحاسيس ؟ •• ما هى الاحاسيس
•• أليست تلك الخبرات المتراكمة من واقع الحياة ؟ •• أكنت الغي
كل تلك الخبرات الواقعية وأدور فى فلك مبادئ ونظريات لا يمكن
تطبيقها فى واقعنا؟ •• أفعل مثل ما فعله حسنين أفندى •• وسكنت
لحظة كأنما يستعيد ذكريات قديمة •

وواصل كلامه : حسنين افندى كان زميلي فى الجامعة • وكان يؤمن بأن فى رأسه فكرة جديدة ، وبدأ يجرى بحثا علميا • كان يشتري أنابيب الاختبار من مرتبه الصغير ، وكان يسافر هنا وهناك ليجمع المواد • ثم ماذا حدث ؟ • • وسألت فى شرود : ماذا حدث له ؟ • • •

ومصمص شفتيه وقال : سبقه زملاؤه فى تسجيل بحوث شكلية من أجل الترقية وحاربه الاساتذة الكبار لأنه رفض أن يبيع اسمه لأحد • ثم فصلوه بتهمة ملفقة • وهزت رأسها : لا يمكن • • !

وقال بهدوء : قابلته منذ شهر فى الشارع • كان ينظر أمامه فى ذهول ولم يعرفنى • وابتسم كاشفا عن أسنانه الصفراء ، ورأيت طرف اصبعه يطل من حدائه • كان شيئا مؤلما جدا • هل يحترم أحد حسنين أفندى ؟ • • وصاحت : أنا أحترمه •

وقال بهدوء شديد : ومن أنت ؟ •

ونظرت اليه فى غضب : أنا ؟ • • أنا ؟ • •

وأحست أن صوتها يضيع ، وانها تختنق ، ففتحت باب العربة وخرجت الى الصحراء • وخرج الساعاتى وراها وسماعته يقول : الحقيقة مرة يا فؤادة • ولكن يجب أن تعرفيها • كان يمكن أن أكذب عليك • ما أسهل الكذب • تعودته وخبرته • ولكنى أحبك يا فؤادة وأشفق عليك من الحيرة والتمزق •

وأمسك يدها الصغيرة النحيلة فى يده السمينية الطرية ، وهمس : أحبك • وشدت يدها وصاحت فى ضيق : دعنى ! دعنى وحدى ! لا أريد أن أسمع صوتا •

وتركها وعاد ليجلس في العربة • وسارت وحدها في الصحراء
وبدا الصغير يدوي في أذنيها • نعم ، ليدو الصغير العاد ؟
فالصمت أفضل من ذلك الصوت • ليدو الجرس الاخرس الذي
لا ينقطع فالجرس أفضل من تلك الكلمات • وأنت يا فريد استمر في
الغياب فماذا كنت تفعل لو أنت موجود ؟ • ماذا كنت تفعل ؟ •
ماذا تفعل قطرة في بحر ؟ • ماذا تفعل قطرة في بحر ؟

وفردت ذراعيها في الهواء واحتضنت الفراغ • نعم ، الفراغ
أفضل ، والاشياء أفضل • ولكن كيف تصبح لا شيء ؟ • قدماها
تنتقلان فوق الرمل ، وأنفاسها تدخل وتخرج من صدرها ، ودقات
قلبها لا تزال في أذنيها •

كيف يمكن أن يتلاشى جسدها ؟ • •

وخبطت الارض بقدمها : لماذا لا أتلاشى ! • • وكتمت أنفاسها
ليكف الهواء عن الدخول والخروج من صدرها • وضغطت بيدها
على قلبها ليكف عن الدق •

وخيل اليها ان الهواء كف عن الدخول ، وان صدرها لم يعد
يعلو ويهبط وان دقات قلبها لم تعد مسموعة في أذنيها ، وابتسمت
ابتسامة راضية • انها تتلاشى • ولكن هناك شيء ثقيل يجثم على
صدرها ، وشيء لاسع مر يحرق حلقها ، ورائحة كريهة غريبة
تملا أنفها • ويد طرية سمينة تمسك يدها • وحاولت أن تشد
يدها لكنها لم تجدها • كانت قد تلاشت •

فتحت عينيها ورأت الدولاب والشماعة والنافذة والسقف بتلك
الدائرة المشرشرة وتلفتت حولها في ذهول • انها لم تتلاش ، وهذه
هي حجرتها كما كانت • وما هو رأسها الثقيل فوق الوسادة ،

وجسمها بثقله وكثافته ممدودا تحت الغطاء، وصوت القدمين الزاحفتين تقتربان من الحجرة ، والوجه الاسمر ذو التجاعيد يطل من الباب -
ورأت العينين الواسعتين تظفران اليها وسمعت الصوت الواهن
يقول : مالك يا بنتى ؟ .. مالك يا فؤادة ؟

وهزت رأسها وقالت بصوت مبحوح : لا شيء ياماما . لو
كنت فقط أموت !! وعامت العينان الصفراوان فى الدموع : لماذا
يا فؤادة ؟ .. الموت للعجائز مثلى . كنت تكرهين سيرة الموت .
فماذا حدث ؟

وهمست : فريد . وقالت الأم فى فزع : من ؟ .. فريدمات ؟
وانتفضت فى السرير : لا لا . انه غائب فقط . وسوف يعود
وأخفت وجهها تحت الغطاء ، وابتلعت لعابا غريبا على فمها ،

لعابا لاسعا مرا . من أين أتى هذا اللعاب ؟ . وبدأت تتذكر بشيء من
الوضوح .. كانت واقفة فى الصحراء تحمق فى الفضاء ، وأحست
بالساعاتى خلفها ، وحوط ذراعيه حول خصرها ، وأصبحت عيناه
تقتربان وتتسعان وتزدادان جحوظا . وأحست شفثيه الباردتين
فوق شفثيها ، وأسنانه الكبيرة تصطك بأسنانها . وملا أنفها رائحة
معدنية غريبة ، كرائحة الحديد الصديء وملا فمها لعابا مرا لاسعا .

نعم ، كانت ترى وتحس ، لكنها لم تكن رؤية واضحة ، ولم
يكن احساسا أكيدا . كان كالحلم الكثيب . وحاولت أن ترفع ذراعها
وتصفعه لكن ذراعها لم تكن ترتفع .

ومدت يدها من تحت الغطاء وتحسست ذراعها . كانت موجودة
وحركتها فتحركت وأخرجت المنديل من تحت الوسادة وبصقت
ثم بصقت .. لكن المرارة اللاسعة كانت ملتصقة بفمها . وخيل اليها

انها موشكة على التقيؤ ، فدفعت عنها الغطاء وسارت الى الحمام .
لكن رغبة القيء لم تكن لتتحقق . ودعكت أسنانها بالفرشاة
والمعجون ، وغرغرت فيها . وظلت المرارة ملتصقة بحلقها تهبط
شيئا فشيئا الى جوفها .

وأحست يد أمها النحيله على كتفها : ماذا حدث لفريد ؟
ورفعت عينيها اليها . كان في عيني أمها نظرة غريبة فارتعدت :
لا أعلم . لا أعلم . دعيني وحدي يا ماما . وسارت الى حجرتها
وجلست على طرف السرير تمسك رأسها بيديها . ودق جرس
التليفون فانتفضت . انه هو حتما . سيأتي صوته الغليظ الصدى
من خلال الاسلاك . سيأتي حتما فلماذا لا يختل توازن الارض ويقع
التليفون وينكسر . . لكن الارض تدور بغير خلل أو كلل ، والتليفون
لن يقع ولن ينكسر ، وسيأتي صوته حتما من ثقب السماعه ، كما
تأتي الريح من ثقب الباب . سيأتي حتما بغير خلل أو كلل .
وستلسع مرارته حلقها وستملأ رائحته الصدئة أنفها فلماذا لا ترتدى
ملابسها وتهرب ؟

ورفعت جسمها الثقيل ونهضت ، وارتدت ملابسها . ورات
عيني أمها تنظران اليها في صمت ، كانت فيهما نظرة غريبة ،
وتعشرت خطواتها وهي تفتح الباب ووقفت تنظر اليها لحظة ، كان
يمكن أن تبقى معها ، كانت تريد أن تبقى ، ولكنها فتحت الباب
وخرجت .

سارت في الشارع تجر جسمها جرا . لم تكن تفكر في شيء .
كان رأسها هادئا . ليس هدوءا بمعنى الهدوء . ولكنه كان نوعا
من الشلل ، كذلك الذي يصنعه المخدر المركز بخلايا المنخ .

وتركت قدميها تسيران وحدهما بغير اشراف. من رأسها • ولماذا
الرأس دائما •• لماذا لا يكون العقل فى الساقين؟ • الرأس لا يفعل
شيئا سوى أن يحمل فوق الاكتاف ثم يحكم ويتحكم • والساقان
تقومان بالعبء وتحملان الرأس والكتفين والجسم بأكمله ثم لاتحكيان
أبدا • كما يحدث فى الحياة • الذين يعملون يكدهون ولا يحكمون،
وتبقى الرؤوس محمولة فوق الأعناق تقطف الثمار وتصدر الاحكام •

كلمات فريد مرة أخرى تعود • ونبرة صوته • وحركة يديه •
لا تزال باقية فى رأسها • لماذا تبقى وهو غائب؟ •• كيف تصنع تلك
الحركة فى رأسها وتعود تدب من جديد؟

وسارت بحذاء المشتل • وصعدت رائحة الياسمين الى أنفها •
وعادت أنفاس فريد على وجهها برائحتها وسخونتها ، وعاد ملمس
شفثيه فوق عنقها • ورفعت يدها الصفراء لتلمس وجهه لكن يدها
ارتجفت فى الهواء ثم سقطت الى جوارها •

كان النيل كما كان دائما ، راقدا محنطا بجسمه الطويل ذى
التجاعيد ، ينثنى بخمول كموس عجوز ، مستسلما راضيا متكيفاً،
وتلفتت حولها • كان كل شيء هادئا مستسلما متكيفاً • وهى ••
هل يمكن أن تتكيف ؟ •• هل يمكن أن تصبح واحدة من تلك
الرؤوس المحنطة فى المكتب •• هل تضع اسمها فوق بحث لم تُجرب
كما يفعل الناجحون واللامعون ؟

• وحلقت بعينيها فى السماء والارض • ماذا كانت تريد منذ
البداية ؟ •• لم تكن تريد شيئا • لم تكن تريد أن تنجح أو تلمع
كانت تحس فحسب ، تحس ان فيها شيئا ما ليس فى الآخرين •
انها لن تعيش وتموت ويبقى العالم كما هو • كانت تحس فى رأسها
حركة ، فكرة جديدة ، لا تعرف كيف تنطق بها • الفكرة كانت فى

رأسها صاحبة وحيّة ، لكنها لم تكن تخرج • كأنما كانت تصطدم
بجدار سميك •• أكثر سمكا من عظام رأسها •

كانت كلها أحاسيس • ولكن ما بداية أى شىء جديد ؟ ••
كيف بدأ أى مكتشف غير العلم أو التاريخ ؟ •• أليست البداية
أحاسيس •• ؟ وما هو الاحساس ؟ •• فكرة مبهمّة •• حركة
غامضة فى خلايا المخ •• نعم ، الاتكون البداية دائما حركة غامضة
فى خلايا المخ •• لماذا اذن تهزأ بأحاسيسها ؟ •• لماذا تكذبها ؟ ألم
تحس حين رأت الساعاتى لأول مرة أنه لص ؟ •• أخذت أحاسيسها
بالعمارة الشاهقة والسيارة الطويلة •• هل غيرت الهيئة العليا
والمجلس السياسى وكلام الصحف من أحاسيسها الاولى ؟ •• ألم تظل
رغم كل هذا تنظر فى عينيه الجاحظتين وتحس أنه لص ؟ •• ألم تلتقط
خلايا مخها ذلك الكذب اللامرئى فى ذنبه عينيه ؟ لماذا اذن تهزأ
بأحاسيسها ؟ •••

وتوقفت لحظة عن السير وسالت نفسها : هل شكّت فى
أحاسيسها أبدا ؟ •• ومتى بدأت تشك ؟ •• متى ؟ •• وتلفتت
حولها ، واصطدمت عينها بباب المطعم الصغير وتذكرت • انها تلك
الليلة • تلك الليلة المظلمة المتربة • حين دخلت المطعم ورأت المائدة
خالية عارية بغير فرش ، والهواء يضربها من كل ناحية كجذع شجرة
مبتور •

واقتربت قدماها من باب المطعم فى وجل •• أتدخل ؟ •• أتلقى
نظرة ؟ •• ربما •• ربما تجده •• ربما يكون قد عاد • وانتقلت
قدماها خطوة خطوة ناحية الباب • ووقفت لحظة تلتقط أنفاسها ،
ثم دخلت الممر الطويل يحوطه الشجر ، قدماها ترتجفان وقلبها
يخفق ، ستخرج من الممر وتنظر الى المائدة ولا تجده ، خير لها

آن تعود الآن ، خير لها أن تعود وفي نفسها بعض أمل ، انه هناك موجود ، جالس الى المائدة ، ظهره مائل قليلا الى الامام ، وشعره الأسود الغزير ، وأذناه المحثقتان بالدم دائما ، وعيناه البنيستان اللامعتان ، يتحرك فيهما ذلك الشيء الغريب ، الشيء الذى تحسه ولا تراه ، الشيء الذى يجعله هو نفسه ، بذاته المنفردة عن الآخرين وكلماته وأفكاره ورائحته الخاصة ، هو فريد وليس رجلا آخر كالملايين .

واستدارت لتعود . لكن قدميها تحركتا الى الامام ، وسارتا الى نهاية الممر وانحرفتا الى اليسار . ووقفت لحظة مطرقة لا تقوى على رفع رأسها . ثم رفعت رأسها . وارتطمت عينها بجدار من الطوب . اختفت المائدة واختفى كل شيء ولم تر الا جدارا قصيرا بُني فى العراء كذلك الجدران القصيرة التى تُبنى فوق الملوتى .

وسمعت صوتا خافتا من ورائها يسأل : هل تريدين سمكا ؟ ونظرت خلفها . ورأت امرأة تحمل طفلا . لم يكن طفلا . كان هيكلا عظيما صغيرا يفتح فكيه الصغيرتين الخاليتين من الأسنان ويقبض بهما على ثدي ضامر جاف ، يتدلى من صدر المرأة كقطعة من جلد الاحذية . ونظرت اليها المرأة بعينين نصف معتمتين ملتصقتى الرموش وقالت بصوت ضعيف : هل تريدين سمكا ؟ . وابتلعت فؤادة لعابها المر وقالت فى شرود : كان هنا مطعم صغير . وقالت المرأة : نعم . ولكنه أفكس وترك المكان .

وسألت : ومن أخذ المكان ؟ . قالت المرأة : البلدية .

وسألت : ومن بنى هذا الجدار ؟ . وقالت المرأة : البلدية .

وسألت وهى تتلفت حولها للعراء الواسع : ولماذا بنته ؟

وردت المرأة وهي تشد ثديها الجاف وتدسه بين فكي الطفل :
زوجي يقول ان البلدية تبني هذه الجدران لتكتب عليها اسمها .

ونظرت اليها المرأة من خلال رموشها الملتصقة ثم قالت : هل
تريدين سمكا؟

وابتسمت ابتسامة واهنة وقالت : ليس اليوم . ربما آتى ،
لأشتري يوما .

وخرجت من الباب الصغير وسارت في الشارع . لم يعد هناك
أمل . لم يعد هناك شيء . لم يعد الا جدار من الطوب . . جدار
قصير بُني في العراء لا يصلح لشيء اسوى أسماء الموتى .

نعم ، لم يعد الا جدار . وهل كان هناك شيء آخر . . ليس
هناك شيء . كل شيء اختفى كأنه حلم . وما الفرق بين الحقيقة والحلم؟
لو ترك ورقة صغيرة بخط يده لاستطاعت أن تعرف . . ورقة
عليها حروف تستطيع أن تفرق بين الحلم والحقيقة ، أما هي برأسها
وذراعيها وساقها فلا تستطيع .

وهزت رأسها في ضيق . كان رأسها ثقيلًا كأنما تحجر .
كأنما أصبح هو الآخر جدارًا من الطوب . وهل كان شيئًا آخر ؟ . .
هل كان شيئًا سوى جدار مصمت يردد الصدى . يردد ما سنعلم
وما قرأ . هل قال شيئًا من عنده ؟ . . هل قال شيئًا جديدًا لم يقله
أحد من قبل ؟ . . ألم يكن يطلق ذلك الصغير الحاد المتواصل حين
تصمت كل الأشياء ؟

وبدأ الصغير يطن في رأسها فامسكته بين يديها وجلست على
السور الحجري ، وظلت مطرقة لحظة ثم رفعت عينيها المحتقنتين بالدم
الى السماء . أكان كل ذلك حلما ؟ . . أكانت أحاسيسها وهما ؟ . .

وإذا كذبت أحاسيسها فماذا تصدق ؟ ٠٠ ماذا يمكن أن تصدق ؟ ٠٠
اسما مكتوبا على جدار ؟ ٠٠ اسما مختوما فوق بحث ؟ ٠٠ كلمة
مطبوعة فى صحيفة ؟ ٠٠٠

ودارت بعينيها الحمراء فى السماء • وانت يا سماء ٠٠ هل
انت الجدار العلوى الذى يصنع السقف ؟ ٠٠ هل انت جدار مصمت
كأى جدار ؟ ٠٠ وهزت يديها فى الهواء وقالت بصوت عال : هل
أنت جدار ؟ ٠٠ لماذا تصمتين ؟ •

وحلق فيها رجل كان يسير فى الشارع • واقترب منها
يتفحصها بعينه الضيقتين السوداوين ثم ابتسم نصف ابتسامة
وقال : ادفع لك زيالا فقط ، ان ساقيك رفيفتان ، ونظرت اليه فى
ذهول ثم رفعت جسمها الثقيل من فوق السور وحملتها قدماها
بغير وعى منها الى بيتها •

كان باب البيت مفتوحا ، والصالة مليئة بالناس • وجوه
تعرفها ووجوه لا تعرفها • كانوا ينظرون اليها بعيون غريبة • وسمعت
صوتا عاليا كالصراخ • ورأت وجهها يشبه وجه أمها بغير تجاعيد •
انها خالتها سعاد بجسمها السمين وفستانها الاسود الضيق وسمعت
صوتها الحاد يصرخ : قوادة ٠٠٠

وحوطتها بذراعيها السمينتين القصيرتين ، والتف حولها
نساء كثيرات يصرخن فى صوت واحد وتفوح من ملابسهن السوداء
رائحة عطر • وكادت تختنق فدفعت عنها الاجسام السميكة وصاحت
بأعلى صوتها : ابتعدوا عنى ٠٠ !

وتفرقت من حولها النساء مذعورات • وسارت بخطوات
ثقيلة بطيئة الى حجرة أمها • كانت نائمة فوق السرير وقد

غُطي جسمها ورأسها . واقتربت منها بخطوات وجلة . ومدت يدها بحذر لتكشف الغطاء . وظهر رأس أمها ملتفا بالطرحمة البيضاء ، ووجهها ذو التجاعيد ، وعيناها مغمضتان ، وفمها مطبق ، والحلق الذهبي الصغير في أذنيها . انها نائمة كما كانت ننام ، لكن أنفاسها ليست عالية . وتفردت في وجهها . كانت ملامحها تتغير شيئا فشيئا ، كأنما تهبط في وجهها وتلتصق بعظامها ويضيع منها الدم .

وسرت في جسمها قشعريرة ، أصبح وجه أمها كوجه تمثال من الجرانيت يشع برودة غريبة ، وأعدت الغطاء فوق الرأس وهي ترتعد ، ودوى الصراخ في أذنيها كصغير حاد متصل . وسارت الى حجرتها كالتائهة ، لكن حجرتها كانت مليئة بوجوه لا تعرفها ، وخرجت الى الصلاة ، كانت العيون الجاحظة الغريبة تحوطها وتحاصرها ، والصراخ يدوى في رأسها . وسارت ناحية الباب بغير وعى ، واختفت خلف الباب لحظة ثم هبطت السلم وخرجت الى الشارع تجري .

لم تكن تعرف الى أين هي تجري ، لسكنها كانت تجري وتلتفت وراءها كأنما يطاردها شبح ، كانت تريد أن تهرب الى مكان بعيد لا يراها فيه أحد ، لكنه لم يدعها تهرب ، لمحها وهي تجري في الشارع فأوقف العربية الزوقاء وجرى خلفها ، وأمسكها من ذراعها قائلا : فؤادة . . الى أين تجرين ؟ . ووقفت تلهث . ورأت عينيه الجاحظتين ترتجان من تحت زجاج النظارة . وقالت بصوت خائر : لا أدري .

وقال : طلبتك بالتليفون منذ ساعة وعرفت الخبر . واطرق الى الأرض ثم قال : جئت لأعزيك .

وتلتفت حولها . كان الصراخ لا يزال يدوى في أذنيها ،

الغربة وخرجت الى الصحراء . كان في الهواء برودة خفيفة
شدت عضلاتها ، لكن جسمها كان كالعنكبوت الثقيل ، وحركت
ساقها لتنفض عنها ذلك العنكبوت المزمع لكنه ظل جائما فوقها ،
وفتحت فمها لتصرخ وتطرد الغصنة من حلقها لكن عضلات فمها
كانت تنقبض وتنبسطن دون أن تطرد شيئا ، وهبطت الغصنة الى
رقبته فبدأت عضلات رقبته تنقبض وتنبسطن ، لكن الغصنة
انتقلت الى صدرها وبطنها ، وبدأت عضلات صدرها وبطنها
تنقبض وتنبسطن ، وزحفت الغصنة كالديدان الى جميع اجزاء
جسمها فأصبحت عضلاتها جميعا تنقبض وتنبسطن في اهتزازات
سريعة عنيفة كتشنجات الصرع ، كانت تريد أن تتخلص من ذلك
الشيء الحبيس في أنسجتها .

وكان اللحن يرن في الصحراء الساكنة ، لم تكن تسمعه ،
ولكنه كان يسرى في الهواء ويدخل ويخرج مع أنفاسها ، كانت
تلهث وتريد أن تتوقف لكن عضلاتها أفلتت من قبضة وعيها
وانطلق جسمها يهتز مع اللحن ، يفرز سموم الطاقة الحبيسة
ويستشعر متعة الرقص بغير وعى .

نعم ، كانت غائبة عن الوعي ، وكانت تستمتع بلذة الحركة
العنيفة ، لكن نقطة صغيرة في رأسها ، ربما خلية واحدة من خلايا
مخها ، كانت لا تزال تحتفظ بوعيها ، ولا تزال تعرف أنها في
الصحراء ، وأن الساعاتى يقف وراءها ، وأنها حزينة حزنا شديدا ،
أنها ماتت ، وفريد غائب ، وفكرة البحث ضائعة ، وحياتها في
الوفاة فارغة .

وهزت رأسها بعنف لتفصل عنه تلك الخلية الواحدة
الواعية . لكنها لم تكن تفصل أبدا . كانت قد تماسكت وتصلبت
وراحت ترتج داخل رأسها وتمزق خلايا مخها الهلامية كقطعة
زلسط .

وانقطع اللحن فجأة . ربما بلغ نهايته ، او ربما أطفأ
الساعاتى الراديو . وسقط جسمها فوق الرمل منقطع الأنفاس
مبللا بالعرق . منذ متى لم يبلل جسمها مثل هذا العرق ؟ ..
منذ متى لم ترقص رقصة الخلاص من سياج العقل ؟ .. منذ
متى لم تسمع تيوردوراكس السجين ؟ .. منذ متى قال كازانزاكس
لا ينقض الا الجنون ؟ .. لكن فريد كان يقاوم الجنون . كان يقول
جنون فرد واحد معناه الحبس أو الموت ، ولكنه جنون الملايين .
وماذا يصنع جنون الملايين يا فريد .. كان يقول المعرفة والجوع .
الجوع موجود ولا ينقص الا المعرفة . لماذا لا يعرفون يا فريد ؟
وكيف يعرفون يا فؤادة وكل شيء من حولهم أما أحرص واما
يكذب ؟

وفتحت عينيها . ووجدت نفسها راقدة فوق الرمل ،
والى جوارها كتلة ضخمة من اللحم لها عينان جاحظتان يطل
منهما شيء كاذب يتلصص . وسمعت صوتا غليظا يقول : أبداع
رقصة رأيتها ، وأجمل راقصة فى الوجود .. ! وحوطها بدراعيه
وملأت أنفها رائحة الحديد الصدىء وانتشر فى فمها اللعاب
اللامع المر . ورات عينيها الجاحظتين تبرزان وتتسعان تطل
منهما نظرة غريبة مخيفة . وتلفتت حولها فى فزع . ولم تر
الا الصحراء والظلام . وحاولت أن تتنفس ولم تستطع ، فدفعته
بعيدا عنها بكل قوتها ونهضت مسرعة لتجرى . وجرى وراءها .
لم يكن أمامها الا ظلام يتسع ، ومن خلفها ذلك الشبح
الجاحظ العينين يطاردها ، وخيل اليها أن الأرض المنبسطة
أمامها تعلق وتتكور لتصبح عينين كبيرتين جاحظتين وهى تجرى
بينهما فى خندق طويل ضيق ، وكانت السماء أيضا بكثلتها المقفرة
السوداء قد أصبحت عينين كبيرتين جاحظتين تجثمان فوقها

وتضغطات عليها ، واصطدمت بشيء مقعر صلب وسقطت على الأرض فاقدة الوعي .

فقدت وعيها تماما فيما عدا تلك الخلية الواحدة الواعية، استقطبت حواسها الخمس ، وظلت ترى وتسمع وتحس وتذوق وتشم ، وأحست الكف السمين الطرية فوق صدرها ، وشمت رائحة الحديد الصديء ، وذوقت طعم اللعاب اللاسع المر .

وتحولت الكف الطرية الى أصابع غليظة ترتعش . لم تكن رعشة ثابتة في مكانها ، لكنها رعشة هابطة الى أسفل . . الى بطنها وفخذيها . ورات رقبته المكتنزة باللحم كيجذع شجرة عجوز يبرز منها يرعم صغير أسود كان يمكن أن يعيش وينمو لكنه مات وتعفن . وقميصه الحريري المفتوح يكشف عن صدر سمين أملس بغير شعر ، ويهبط الى حزام من الجلد مفكوك ، يدور حول بطن منتفح عال تتدلى منه ساقان رفيعتان معوجتان بغير شعر ، وكان بطنه المرتفع يعلو ويهبط مع أنفاسه المتقطعة ، وتنبعث من داخله حشرة خافته غريبة كأنين ثور جريح .

وزحفت فوق جسدها برودة ثقيلة غريبة ، برودة لم يعرفها جسمها من قبل سوى مرة واحدة سابقة . كانت راقدة فوق ملءة من الجلد ومن حولها أجهزة معدنية . . مشارط وأبر ومقصات . وأمسك الطبيب ابرة حادة طويلة وغرزها في ذراعها . وسرت في جسمها تلك البرودة الثقيلة الغريبة فكأنما هي تغطس في حوض ماء مثلج وجسمها يشغل ويفرق شيئا فشيئا .

ولم يكن تحتها ماء ، كان هناك شيء ناعم له ملمس الرمل ، وهواء بارد يدخل في ثوبها المفكوك ، ولعاب مر لاسع يتجمع في جوفها ، ورائحة صدئة عتيقة تسد أنفها ، والى جوارها كتلة ضخمة ممددة على الأرض ، تلهث وترقع ، وترتجج معها عينان

جاحتان مطفأتان وساقان رفيعتان مرتختان . وحاولت أن
تفتح فمها لتبصق لكنها لم تستطع . واقترب جفناها الثقيلتان
وانغلقتا .

فتحت عينيها لترى نور النهار يدخل من شقوق الشيش ،
ونظرت حولها في ذهول . كان كل شيء في حجرتها كما كان دائما ،
الدولاب والشماعة والنافذة والسقف والدائرة المشرشرة ،
وسمعت صوت القدمين تزحفان في الصالة وتقتربان من حجرتها ،
ونظرت الى الباب تنتظر ظهور وجه أمها ، لكن وقتا طويلا مر
دون أن يظهر وجه أمها ، وانتفضت من فوق السرير واقفة
على قدميها . لقد تذكرت ، وسارت بقدمين مرتجفتين الى
الصالة ، واقتربت من باب حجرة أمها في وجل ، أكان حلما ؟ .
أم أنها ماتت حقا ؟ . ومدت رأسها لتنظر داخل الحجرة ،
وارتطمت عيناها بالسرير الخالي وتراجعت الى الورا في دعر ،
وسارت الى المطبخ ، والى حجرة الطعام ، والى الحمام ، لم تكن
أمها في أي مكان . وأحست بدوار فأسندت رأسها الى الحائط ،
كانت كتلة صلبة تلف وتدور داخل رأسها وترتطم بعظامه ،
وشيء مر لاسع يلتصق بطلقها . وزحفت مستندة الى الحائط
لتصل الى الحوض ، وفتحت فمها لتبصق لكن المرارة ضغطت
على جوفها فتقيأت ، وفاحت الرائحة الصدئة الكريهة من فمها
وانفها وملابسها . وخلعت ملابسها ووضعت جسمها تحت الماء
الجاري ، وغسلته بالليفة والصابون ، لكن الرائحة لم تزل ،
كانت قد نفذت الى أحشائها وخلاياها وامتزجت بدمائها .

وعادت تستند على الجدران الى حجرتها ، ودارت بعينيها
المتحقتين بالدم حولها ثم استقرت فوق وجه أمها معلقا بجوار
الدولاب . ونظرت اليها أمها بعينيها الواسعتين الصفراوين تطل
منهما تلك النظرة الضعيفة تستجديها أن تبقى ، وأخفت وجهها

بيديها ، ألا تكف أمها عن هذه النظرة الساحقة ؟ .. ألم تكفر عن
ذنبها ؟ .. ألم تملأ جوفها بذلك العلقم اللاسع المر ؟ .. ألم تنقع
جسدها في تلك المرارة الصدئة المركزة ؟ .. هل هناك حزن أشد
من هذا الحزن ؟ .. وما هو الحزن ؟ .. كيف يحزن الناس ؟ ..
صراخ عال يجلو الصوت ويفرج عن الكبت ؟ .. ملابس سوداء
جديدة تنعش جدتها الجسم ؟ .. ولائم وذبائح تفتح الشهية
وتملأ البطن ؟ .. أهنك أم ماتت وحظيت بأكثر من هذا الحزن ؟ ..
هل خلفت أم ابنة تتجرع من بعدها السم ؟ .. أهنك وفاء للأمومة
أكثر من هذا الوفاء ؟ .. أهنك سداد لديون البنوة أكثر من هذا
السداد ؟ ..

وسارت الى السرير تحس بعض ارتياح ، وفردت ذراعيها
وساقيها ، لا زال جسمها ثقيلًا ولا زال جوفها مرا ، متى ؟ ..
متى يضيع هذا الثقل تماما وينتهي العباء ؟ ..

وانبعث من التليفون الجرس . انه هو ، لا أحد غيره ، لم
يعد هناك شيء سواه ، لم يبق الا أن تتجرع السم يوما بعد
يوم . ستملأ جوفها بالعلقم اللاسع المر ، وستنقع جسمها في
المرارة الصدئة المركزة . لم يبق الا الموت البطيء .

ومدت يدها النحيلة الصفراء ورفعت السماعة ، وجاءها
الصوت الغليظ اللزج : صباح الخير يا فؤادة . كيف أنت ؟ ..

وقالت بفتور : أعيش .

قال : ماذا ستفعلين الليلة ؟

قالت : لا أدري . لم يبق لي شيء .

قال : وأين أنا ؟ .. أنا الباقي لك .

قالت : نعم ، لم يبق الا أنت .

قال : سامر عليك بالمعمل في الثامنة والنصف .

* * *

كانت على وشك أن تخرج من باب البيت حين لمحت شيئاً ،
شيئاً أبيض يلمس من وراء الزجاج ، وعادت الى الورا بضع
خطوات وقربت عينيها من الصندوق ، نعم ، كان هناك خطاب ،
وبدا جسمها ينتفض ، وفتحت الصندوق وأمسكت الخطاب
بأصابع نحيلة طويلة ترتجف ، والتقطت عيناها الحروف المربعة
الكبيرة وتلك التاء الطويلة ذات الذيل الملفوف ، ودب قلبها ،
انه خط فريد . وتلفتت حولها في ذهول ، حلم أم حقيقة ؟ .
ورأت السلم والباب وصندوق البريد ، ومدت أصبعاً مرتجفاً
ولمست صندوق البريد . نعم ، انه موجود ومحسوس ، وضغطت
بأصابعها على الخطاب ، انه ورقة حقيقية لها سمكها وكثافتها .
ورفعت أصبعها الصغيرة ولمست جفنها ، انه مفتوح .

وقلبت الخطاب على ظهره وبطنه ، وتفقدت زواياه وأطرافه ،
لم يكن عليه الا اسمها والعنوان ، وقربته من أنفها ، وشمته
الرائحة المميزة للورق وختم البريد ، وفتحت الخطاب وسحبت
ورقة طويلة شفافة تملؤها السطور :

فؤادة . .

كم يوم مضى منذ لقائنا الأخير . . منذ تلك الليلة القصيرة
المحملة بأول رياح الشتاء ، كنت تجلسين أمامي ومن خلفك
النيل ، وفي عينيك ذلك البريق الغريب الذي يقول : عندي شيء
جديد ، وأصابعك الطويلة الرفيعة تنقر على ظهر المائدة بهدوء
يخفي من تحته بركانا مكتوما . كنت صامتة وعرفت أنك تتألمين .
وقلت لي بعد صمت طويل : ما رأيك يا فريد ؟ سأترك الوزارة .
كنت أفهمك ، وأردت أن أقول لك في تلك اللحظة : أتركها وتعال

معي . لكنك تذكرين اننى لم أرد . كنت أحس أن لك دورا آخر غير دورى . كان دورك هو أن تصنعى شيئا جديدا لو أعطيت الفرصة . وكان دورى هو أن أصنع الفرصة ليصنع الناس الجديد . وما الجديد ؟ . تغيير القديم ؟ . وماذا يصنع التغيير ؟ . . أليس هو التفكير ؟ . هل تذكرين ؟ . . ذلك الطفل الصغير الذى يدور حول الموائد فى المطعم . . هل تذكرين يده اليابسة المشققة وهو يمدها من أجل قطعة خبز أو قرش ، وكان الناس يشفقون عليه ويعطونه قرشا بغير تفكير ، لو انهم فكروا ماذا يفعل قرش . . ! لو انهم فكروا لماذا هو يجوع . . ! ، نعم يا فؤادة ، انه التفكير . انها الفكرة التى تخرج من الرأس ، وهل تخرج الفكرة من الرأس بغير نطق ؟ . .

كان دورك ان تصنعى الفكرة وكان دورى ان اصنع النطق . ولم اكن أستطيع وحدى شيئا . لم يكن دورى سهلا أو مقنعا كما تبدو الكلمات سهلة ومقنعة . كان نوعا من الجنون ، فكيف تنطق الأفواه المكومة ؟ . . وكيف ينفذ الصوت من خلال كمادات سميكة كالجدران ؟ . . كان نوعا من الجنون ، وجنون فرد واحد لا يصنع شيئا ولكنها الجموع ، هل تذكرين ذلك الحوار القديم ؟ . .

أجل ، لم اكن واحدا ، كان معى آخرون . لم نملك الا ذلك الدور البسيط الخطير ، تلك الكلمات الطبيعية البسيطة التى ولدت مع أول انسان . . . ان يفكر وان ينطق . لم تكن الا هذه الكلمات نقولها ونكتبها . لم تكن مدافع أو بنادق أو قنابل . كانت كلمات فحسب .

وافترقنا فى تلك الليلة القصيرة . وسرت وحدى فى شارع النيل . كنت أفكر فيك . كنت أحس انك تتألمين . ان فى أعماقك فكرة جديدة تصارع من أجل الخروج . تصارع وحدها جدراننا

عالية ٠٠٠ فى الوزارة والبيت والشارع وعظام رأسك ، نعم
يا فؤادة ، كان هناك جدار آخر فى رأسك ، جدار قصير لم يولد
معك . لكنه بُني يوما بعد يوم من الصمت الطويل . وقلت لنفسى
ليلتها وأنا أسير : انه جدار قصير وسينهار حتما حين تنهار
الجدران الأخرى .

ولم أصل الى البيت ، كان هناك رجل يتعقبنى ، أظن أنه
لم يكن واحدا ، كانوا أكثر من واحد ٠٠٠ بل كانوا كثيرين
مسلحين ، ولم يكن معى شيء ، تذكرين : كنت أرتدى القميص
البنّي والبنطلون ، وفتشوا جيوبى ، ولم يجدوا شيئا ، وهل توضع
الكلمات فى الجيوب ؟ ٠٠ وأمسكوا بى ووضعونى فى الحديد ،
لكن الكلمات حملها الهواء فهل يمسون الهواء ويضعونه فى
الحديد ؟ ٠٠

الجدران من حولى ، لكنك معى . احس يدك الصغيرة الناعمة
على وجهى وأرى عينيك الخضراوين فى عينى ، يطل منهما ذلك
الشيء الجديد الحبيس يريد أن ينطق ولا يستطيع . لا تحزنى
يا فؤادة ولا تبكي ، فالكلمات فى الهواء خارج الجدران ، تعيش
وتدخل مع الهواء الى الصدور . وسيأتى حتما يوم تسقط فيه
الكلمات وتنطق الأفواه من جديد .

فريد

انتهت

قصص وروايات الدكتورة نوال السعداوي
من منشورات دار الآداب

✱ ✱ ✱

- امرأتان في امرأة
- امرأة عند نقطة الصفر
- موت الرجل الوحيد على الارض
- الأغنية الدائرية
- موت معالي الوزير سابقاً
- الخيط وعين الحياة
- الغائب
- كانت هي الأضعف
- مذكرات طبية
- تعلمت الحب
- حنان قليل
- لحظة صدق

To: www.al-mostafa.com